صور مشرقة من

الثبات على الإيمان

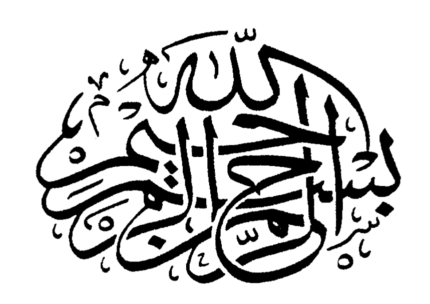
جمع وترتيب أبو همام

السيد مراد سلامة

عفا الله عنه

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط والسي دي
فاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٢٢٢٠٠٢

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩



صُوَرٌ مُشْرِقَةٌ مِنَ

الثَّبَاتِ عَلَى الإِيمَانِ

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا تقبل منا
إنك أنت السميع العليم

رقم الإيداع
٩٥٧٦/ ٢٠٠٥
الترقيم الدولي
977-331-408-1

صور مشرقة من

الثبات على الإيمان

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

المقدمة

إنَّ الحمدَ للهِ، نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أنفسِنا ومِن سيئاتِ أعمالنا، مَن يَهدِه اللهُ فلا مُضلَّ له، ومَن يُضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٢).

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء: ١).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٧٠-٧١).

أما بعد:

فإن أصدقَ الحديث كتابُ الله، وأحسنَ الهدي هديُ محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ محدثة بدعةٌ، وكلَّ بدعة ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّار.

أخي المسلم .. أختي المسلمة:

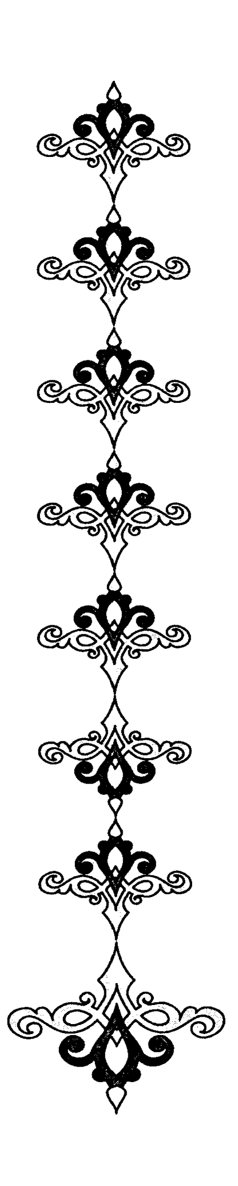
في زمن المتغيرات السريعة وفي زمن الفتن الحالكة حيث استعرت فيه نار الشهوات، وأصبحت الجولة فيه لأهل الباطل وجنده، وأضحى المسلمون فيه ضعفاء يتخطفهم الناس من حولهم، وأصبح المسلم غريبًا بين أهله وقومه، وأصبح المسلم في حاجة إلى ما يثبت به فؤاده على الإيمان ويربط على قلبه وأركانه ويثبت أقدامه على الصراط المستقيم، فهو في حاجة إلى معرفة وسائل

الثبات أمام تلك الفتن: فتنة الظلمة والطغاة وفتنة الشهوات، أمام المصائب والبلايا، والثبات عند الممات.

فها هي ـ أخي المسلم ـ وسائل الثبات وصور الثبات على الإيمان تهتف بك وتدعوك: لا تخف، لا تحزن، لا تهن، لا تضعف، فلست وحدك على الطريق فقد صارت في ذلك ثُلَّة الأنبياء والرسل.

فقد ناح في ذلك الطريق نوح عليه السلام ألف سنة إلا خمسين عامًا، وألقي خليل الرحمن في النيران، وأصيب فيه موسى وعيسى وزكريا ويحيى، وشُجَّ فيه رأس النبي ﷺ، فما وهنوا وما ضعفوا وما استكانوا بل كان حالهم ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٧-١٤٨)، فاصبر وصابر ورابط وقل: **«يا مقلّب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك»**.

أبو همام/ السيد مراد سلامة



الباب الأول

وسائل الثبات على الإيمان



الباب الأول

وسائل الثبات على الإيمان

اعلم ـ علَّمني الله وإياك ـ أن المسلم في حاجة ماسة إلى معرفة وسائل الثبات التي تثبته في زمن كثرت فيه الفتن، وكثرت فيه الأهواء والشهوات، وأصبح المسلم المعتصم بدينه المتمسك بسنة النبي ﷺ غريبًا بين أهله وإخوانه فضلاً عن العالم الخارجي الذي يموج بالفتن، وأصبح المسلم فيه غريبًا كقول النبي ﷺ : **«بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ»**[1] .

لذا أصبح لزامًا وأجل مسمى على المسلم أن يتعرف على وسائل الثبات حتى لا يفتن في دينه وحتى يثبت على عقيدته، فالثبات على الإيمان معناه: الاستقامة على الهدى والنسك بالتقى وقسر النفس على طريق الحق والخير، والبعد عن الذنوب والمعاصي وصوارف الهوى والشيطان.

وهيا نتعرف على وسائل الثبات على الإيمان:

الأولى ـ الاعتصام بكتاب الله تعالى:

الذي نزله على نبيه منجَّمًا ليثبت به فؤاده، يقول الشيخ محمد المنجد: «القرآن العظيم وسيلة التثبيت الأولى، وهو حبل الله المتين، وهو النور المبين، من تمسك به عصمه الله، ومن اتبعه أنجاه الله، ومن دعا إليه هُدِيَ إلى الصراط المستقيم نص الله على أن الغاية التي من أجلها أنزل الكتاب منجمًا مفصلاً هي التثبيت؛ فقال تعالى في معرض الرد على شبه الكفار يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ (الفرقان: ٣٢).

---

(١) رواه مسلم.

*** لماذا كان القرآن مصدرًا للتثبيت؟**

١ ـ لأن القرآن يزرع الإيمان ويزكي النفس بالصلة بالله.

٢ ـ لأن تلك الآيات تنزل بردًا وسلامًا على قلب المؤمن فلا تعصف به رياح الفتنة ويطمئن قلبه بذكر الله.

٣ ـ لأنه يزود المسلم بالتصورات والقيم الصحيحة التي لا يستطيع من خلالها أن يقوِّم الأوضاع من حوله وكذا الموازين التي تهيئ له الحكم على الأمور فلا يضطرب حكمه ولا تتناقض أقواله باختلاف الأحداث والأشخاص.

٤ ـ لأنه يرد على الشبهات التي يثيرها أعداء الإسلام من الكفار والمنافقين كالأمثلة الحية التي عاشها الصدر الأول[١].

ومن منطلق القرآن الكريم تتولد جميع وسائل الثبات، فهو يدعو إلى الصبر وإلى الاعتصام بحبل الله وإلى تدبر قصص الأنبياء وإلى الدعاء، فالقرآن الكريم أعظم مصدر للتثبيت لأنه يزرع الإيمان ويقوي الصلة بالله كما أنه العاصم من الفتن وكيد الشيطان وغوايته، كما أنه يزود المسلم بالتصورات والقيم الصحيحة التي يستطيع على ضوئها أن يقوِّم الأوضاع التي حوله تقويمًا صحيحًا، كما أن القرآن بما اشتمل عليه من أحكام وأصول وقواعد وحكم وقصص يرد على الشبهات، فإن عُلِمَ ذلك كله لزم على من أراد الثبات في الدنيا والآخرة والفوز بالنعيم المقيم أن يتخذ القرآن سميره وأنيسه وأن يجعله رفيقه[٢].

(١) «وسائل الثبات على دين الله» ص (٨، ٩).
(٢) «مجلة التوحيد» عدد ربيع أول ١٤٢٤ ص (٣٤).

الثانية - الإيمان بالقضاء والقدر:

فمن وسائل الثبات على الإيمان أن يؤمن العبد بالقضاء والقدر، وأن كل شيء بقدر وأن كل شيء في كتاب، فإذا آمن العبد بأن كل ما يصيبه مكتوب وآمن أن الأرزاق والآجال بيد الله فإنه يقتحم الصعاب والأهوال بقلب ثابت وهامة مرفوعة وقد كان هذا الإيمان من أعظم ما دفع المجاهدين إلى الإقدام في ميدان النزال غير هايبين ولا وجلين، وكان الواحد منهم يطلب الموت من مظانه ويرمي نفسه في مضائق يظن فيها هلكته ثم تراه يموت على فراشه فيبكي أن لم يسقط في ميدان النزال شهيدًا، وهو الذي كان يقتحم الأخطار والأهوال وكان هذا الإيمان من أعظم ما ثبت قلوب الصالحين في مواجهة الظلمة والطغاة لا يخافون في الله لومة لائم لأنهم يعلمون أن الأمر بيد الله وما قدر لهم سيأتيهم، وكانوا لا يخافون قول كلمة الله خشية انقطاع الرزق، فالرزق بيد الله وما كتبه الله لعبده من رزق لا يستطيع أحد منعه، وما منعه لعبد من عبيده لا يستطيع أحد إيصاله إليه[1].

الثالثة - الاعتصام بالله والافتقار إليه:

يقول إبراهيم الدويش: «إذا عرفت الهدف وبان لك الطريق ورضيت بهما فإياك أن تعتمد على نفسك الضعيفة وعلى حولك وقوتك فأنت أخي مهما بلغت ضعيف والله تعالى يقول: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ (النساء:٢٨)، نعم لا حول ولا قوة لك إلا بالله، فعليك في زمن الفتن والشبهات والشهوات بالاعتصام بالله، أليس المتغيرات تتلاحق؟ أليس الشبهات والشهوات تموج كموج البحر فلا عاصم لك إلا الله.

---

(١) كتاب: «القضاء والقدر» ص (١١١، ١١٢).

تأمل أخي: لماذا نشكو للناس؟ لماذا تئن بضعف نفسك؟ اشك الأمر لله، كن مع الله، إذا سجدت فأعلن ضعفك وافتقارك لله ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (آل عمران: ١٠١)، ألست تريد الهداية إلى الصراط المستقيم؟ إذن اعتصم بالله تعالى، أعلن دائمًا وفي كل لحظة الضعف والافتقار أكثر من الدعاء والانكسار في مثل هذا الزمن، فلا عاصم لك من الفتن إلا الله، لا معين ولا منجي لك في زمن الشهوات إلا الله، لك في رسول الله ﷺ أسوة فقد كان ﷺ يكثر في سجوده من قوله: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»[(١)].

بل كان ﷺ يقول: «**اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد**»، فأين نحن إذن من تكرار مثل هذه الأدعية خاصة في مثل هذا الزمن؟ أليس الله تعالى يقول في الحديث القدسي: «**يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم**»[(٢)].

اطلبوا الهداية .. افعلوا أسبابها .. تجنبوا مواطن الشبهات .. ألحُّوا على الله تعالى بالهداية، إذا سألت أخي فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وردد دائمًا: ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ (البقرة: ٢٥٠)، وكرِّر في كل وقت: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ (آل عمران: ٨)[(٣)].

ويقول ابن القيم: «أجمع العارفون بالله على أن الخذلان أن يكلك الله إلى نفسك ويخلي بينك وبينها، والتوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك، فالعبيد متقلبون بين توفيقه وخذلانه، بل العبد في الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا فيطيعه ويرضيه ويذكره».

---

(١) حديث صحيح.
(٢) رواه مسلم.
(٣) كتاب: «الثبات في زمن المتغيرات» ص(٤٦، ٤٧)

ويشكره بتوفيقه له ثم يعصيه ويخالفه ويغفل عنه بخذلانه له، فهو دائر بين توفيقه وخذلانه، فمتى شهد العبد هذا المشهد وأعطاه حقه، علم شدة ضرورته وحاجته إلى التوفيق في كل نفس وفي كل لحظة وطرفة عين، وأن إيمانه وتوحيده بيده تعالى، لو تخلى عنه طرفة عين لثل عرش توحيده ولخرت سماء إيمانه على الأرض وأن الممسك له هو من يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه[1]، هيا أعلن افتقارك إلى الله واهتف:

فقيراً جئت بابك يا إلهي	ولست إلى عبادك بالفقير
غني عنهم بيقين قلبه	وأطمع منك في الفضل الكبير
إلهي ما سألت سواك عونًا	فحسبي العون من رب قدير
إلهي ما سألت سواك هديًا	فحسبي الهدى من رب بصير
إلهي ما سألت سواك عفواً	فحسبي العفو من رب غفور
إذا لم أستعن بك يا إلهي	فمن عوني سواك ومن مجير

فاطلب العون من صاحب العون واسمع إلى كلام ابن القيم ـ رحمه الله ـ إذ يقول: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ (إبراهيم:٢٧)، كنز عظيم من وفق لمظنته وأحسن استخراجه واقتناءه وأنفق منه فقد غنم، ومن حرمه فقد حرم، وذلك أن العبد لن يستغني عن تثبيت الله له طرفة عين، فإن لم يثبته زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانها وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴾ (الإسراء:٧٤)، فكان أثبت الناس قلبًا وأثبتهم قولاً، والقول الثابت هو قول الحق والصدق وهو ضد القول الباطل الكاذب، فالقول نوعان: ثابت له حقيقة، وباطل لا حقيقة له، وأثبت القول كلمة التوحيد بلوازمها، فهي أعظم ما يثبت الله

---

(١) كتاب: «لا تحزن» ص(١٦٣).

به عبده في الدنيا والآخرة، فما مُنح عبد أعظم من منحة القول الثابت، ويجد أهل القول الثابت ثمرته أحوج ما يكون إليه في قبورهم ويوم معادهم[(١)].

الرابعة ـ الاستعانة بالأعمال الصالحة التي تثبت العبد عند حلول الفتن والشهوات:

رأس تلك الأعمال الصبر والصلاة، يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة:١٥٣)، ويقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ : «الصبر إذا قام به العبد كما ينبغي انقلبت المحنة في حقه منحة، واستحالت البلية عطية، وصار المكروه محبوبًا؛ فإن الله سبحانه وتعالى لم يبتله ليهلكه وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته في السراء، وله عبودية عليه فيما يكره كما له عبودية فيما يحب، وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون، والشأن في إعطاء العبودية في المكاره ففيه مراتب العباد وبحسبه كانت منازلهم عند الله» اهـ.

وصدق الله: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ (النحل:١٢٧)، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف:١٨)، ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة:١٥٥)، وقال عمر ﷺ: **«بالصبر أدركنا حسن العيش»**، ولأهل السنة عن المصائب ثلاثة فنون: الصبر، والدعاء، وانتظار الفرج.

قال الشاعر:

سقيناهموا كأسًا سقونا بمثلها ... ولكننا كنا على الموت أصبرا

وقال ﷺ: **«رحم الله موسى أوذي بأكثر من هذا فصبر»**[(٢)]، وقال: **«من يتصبر يصبره الله»**[(٣)].

---

(١) «إعلام الموقعين»: (جـ١، ص ٧٦).
(٢) أخرجه البخاري.
(٣) أخرجه البخاري ومسلم.

دببت المجد والساعون قد بلغوا جهد النفوس وألقوا دونه الأزرا
وكابدوا المجد حتى مل أكثرهم وعانق المجد من أوفى ومن صبرا
لا تحسب المجد تمرًا أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

الخامسة - الصلاة:

من أعظم وسائل الثبات على طريق الإيمان فها هو النبي ﷺ كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[١]، وكان يقول: «**أرحنا بها يا بلال**»[٢]، ويقول: «**جُعلت قرة عيني في الصلاة**»[٣].

* إذا ضاق الصدر وصعب الأمر وكثر المكر فاهرع إلى المصلى فصل، إذا أظلمت في وجهك الأيام، واختلف الليالي، وتغير الأصحاب فعليك بالصلاة، وكان ﷺ في المهمات العظيمة يشرح صدره بالصلاة كيوم بدر، والأحزاب، وغيرها من المواطن، وذكر الحافظ ابن حجر (صاحب الفتح) أنه ذهب إلى القلعة بمصر فأحاط به اللصوص فقام يصلي ففرج الله عنه، وذكر ابن عساكر وابن القيم أن رجلاً من الصالحين لقيه لص في إحدى طرق الشام فأجهز عليه ليقتله فطلب منه مهلة ليصلي ركعتين فقام فافتتح الصلاة وتذكر قول الله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ (النمل:٦٢)، فرددها ثلاثًا، فنزل ملك من السماء بحربة فقتل المجرم وقال: «أنا رسول من يجيب المضطر إذا دعاه»، ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ (طه:١٣٢)، ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ (العنكبوت:٤٥)،

---

(١) رواه أبو داود (١١٢٤) وأحمد في المسند (٢٢٢١٠)
(٢) رواه أبو داود (٤٣٣٣)، وأحمد (٤٣٣٤، ٣٢٠٧٢، ٢٢٠٠٩).
(٣) رواه النسائي وأحمد (٣٨٧٩، ١٣٥٢٦).

﴿ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾ (النساء:١٠٣)، يقول ابن القيم: «فالصلاة من أكبر العون على تحصيل مصالح الدنيا والآخرة ودفع مفاسد الدنيا والآخرة، وهي منهاة عن الإثم ودافعة للظلم وناصرة للمظلوم وقامعة للأخلاط والشهوات وحافظة للنعمة ودافعة للنقمة، منزلة للرحمة وكاشفة للغمة.

السادسة - التزام شرع الله والعمل الصالح:

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ (إبراهيم:٢٧)، قال قتادة: «أما الحياة الدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح، وفي الآخرة في القبر»، وكذا روي عن غير واحد من السلف، وقال سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ (النساء:٦٦) أي على الحق، وهذا بين وإلا فهل نتوقع ثباتًا من الكسالى القاعدين عن الأعمال الصالحة إذا أطلت الفتنة برأسها وادْلَهَمَّ الخَطْب؟!، ولكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم صراطًا مستقيمًا، ولذلك كان ﷺ يثابر على الأعمال الصالحة وكان أحب العمل إليه أدومه[1].

السابعة - تدبر قصص القرآن ودراستها للتأسي والعمل:

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (هود:١٢٠)، فما نزلت الآيات على عهد رسول الله ﷺ للتلهي والتفكه وإنما لغرض عظيم هو تثبيت فؤاد رسول الله ﷺ وأفئدة المؤمنين، فالله سبحانه وتعالى لما ذكر الأنبياء في سورة الأنعام أوضح للنبي ﷺ الهدف من ذلك بقوله: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ

---

(١) «وسائل الثبات على دين الله» ص(١١، ١٢).

اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام: ٩٠)، ويقول العلامة ابن كثير ـ رحمه الله ـ في قوله تعالى: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (هود: ١٢٠)، يقول: «يقول الله تعالى: وكل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين . . كل هذا مما نثبت به فؤادك يا محمد ـ أي قلبك ـ ليكون لك بمن مضى من إخوانك المرسلين أسوة»، وقوله: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ (هود: ١٢٠) أي هذه السورة، قاله ابن عباس ومجاهد وجماعة من السلف»[١].

الثامنة ـ الدعاء:

من صفات عباد الله المؤمنين أنهم يتوجهون إلى الله بالدعاء أن يثبتهم، ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ (آل عمران: ٨)، ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ (البقرة: ٢٥٠)، ولما كانت: «**قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء**»[٢]، كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»[٣]، فالدعاء هو سلاح المؤمن الذي به يدافع عن نفسه وبه تثبت الأقدام والقلوب.

رأى أصحاب نور الدين محمود زنكي إنفاقه على الفقراء والمساكين ولا سيما طلبة العلم وشدة طلبه الدعاء منهم فعوتب في ذلك فقال: «والله إني لأرجو النصر إلا بأولئك، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٢، ص٤٦٥).
(٢) رواه الإمام أحمد ومسلم عن ابن عمر.
(٣) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧٨٦٤).

الفراش بسهام لا تخطىء (يريد الدعاء)، وأصرفها إلى من لا يقاتل عني إلا إذا رآني بسهام قد تصيب وقد تخطئ»[١]، وها هو ﷺ يتوجه إلى ربه بالدعاء يوم بدر والأحزاب وغيرها من مواقف ومعارك.

التاسعة - الالتفاف حول العناصر المثبتة:

تلك العناصر التي من صفاتها ما أخبر به عليه الصلاة والسلام: «**إن من الناس ناس مفاتيح للخير، مغاليق للشر**»[٢]، البحث عن العلماء والصالحين والدعاة المؤمنين والالتفاف حولهم مُعين كبير على الثبات، وقد حدثت في التاريخ الإسلامي فتن ثبت الله فيها المسلمين برجال.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «كنا إذا حمي البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، وكان أشد الناس يومئذ بأسًا»[٣].

ومن ذلك ما قاله علي بن المديني - رحمه الله -: «أعز الله الدين بالصِّديق يوم الرِّدة، وبأحمد يوم المحنة»، وتأمل ما قاله ابن القيم - رحمه الله - عن دور شيخه شيخ الإسلام في التثبيت: «وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله عنا ينقلب انشراحًا وقوة ويقينًا وطمأنينة، فسبحان من أشهد عبادته جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابًا في دار العمل وآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها، وهنا تبرز الأخوة الإسلامية كمصدر

---

(١) «وقفات مع الأبرار» ص(١٠٥)

(٢) رواه ابن ماجه في «مقدمة السنن» برقم (٢٣٣).

(٣) كتاب «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» (جـ١، ص١٠٧).

أساسي للتثبيت فإخـوانك الصالحون والقدوات المربون هم العون لك في الطريق والركن الشديد الذي تأوى إليه فيثبـتونك بما معهم من آيات الله والحكمة الزمهم وعش في أكنافهم وإياك والوحدة فتـخطفك الشياطين فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية[١]، والتمسك بل العض بالنواجذ على الصاحب الصالح، ولو تأملنا هذه الآية الكريمة في كتاب الله تعـالى لكفتنا في الصحبة والمصاحـبة يقول الحق جَلَّ وعلا: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ (الكهف:٢٨)، تأملوا في زمن الفتن والشهوات الوصية:

ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى فكل قـرين بالمقـارن يقـتـدي

وكم من شاب يحب الخير ويتمنى الصلاح لكن شياطين الإنس له بالمرصاد، وكم من فتـاة فيها خـير وعلى الفطرة وتحب الصلاح ولكن شـياطين الإنس من الفتيات ممن جلسن لها بالمرصاد، يصدونها عن ذكر الله وعن الخير نعوذ بالله من شر الناس، فإياك وصحبة البطال وعليك بالأبطال[٢].

العاشرة ـ الرضى:

وللرضـا ثمرات إيمانيـة كثيرة وافرة تنـتج عنه، يرتفع بها الراضي إلى أعلى المنازل فيـصبح راسخـًا في يقـينه ثابتـًا في اعتقـاده وصادقـًا في أقواله وأعـماله وأحوالـه، فالرضـا يوجب له الطمأنينة وبـرد القلب وسكونه وقراره وثبـاته عند اضطراب الشـبه والتبـاس القضـايا وكثرة الـوارد، فيثق هذا القـلب بموعود الله

---

(١) «وسائل الثبات» ص (٢٤، ٢٦)

(٢) «الثبات في زمن المتغيرات» ص(٢٤، ٢٦).

وموعود رسوله ﷺ، ويقول لسان الحال: ﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٢٢)، والسخط يوجب اضطراب قلبه وريبته وانزعاجه وعدم قراره ومرضه وتمزقه فيبقى قلقًا ناقمًا ساخطًا متمردًا فلسان حاله يقول: ﴿ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا ﴾ (الأحزاب: ١٢)، فأصحاب هذه القلوب إن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين، وإن طولبوا بالحق إذا هم يصدفون، وإن أصابهم خير اطمأنوا به، وإن أصابهم فتنة انقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والآخرة ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ (الحج: ١١)، كما أن الرضا ينزل عليه السكينة التي لا أنفع له منها ومتى نزلت عليه السكينة استقام وصلحت أحواله وصلح باله، السخط يبعده منها بحسب قلته وكثرته وإذا ترحلت عنه السكينة ترحل عنه السرور والأمن والدِّعة والراحة وطيب العيش، فمن أعظم نعم الله على عبده تنزل السكينة عليه، ومن أعظم أسبابها الرضا في جميع الحالات[1].

رضينا بك اللهم ربًا وخالقًا وبالمصطفى المختار نورًا وهاديًا

فإما حياة نظم الوحي سيرها وإلا فموت لا يسرُّ الأعاديا

الحادية عشرة ـ ذكر الله تعالى:

يقول محمد المنجد: «وهو من أعظم أسباب التثبيت، وتأمل في هذا الاقتران بين الأمرين في قوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأنفال: ٤٥)، فجعله من أعظم ما يعين على الثبات في الجهاد، وتأمل أبدان فارس والروم كيف خانتهم أحوج ما كانوا إليها بالرغم من قلة عدد وعدة الذاكرين الله كثيرًا، وبماذا استعان يوسف عليه السلام في الثبات أمام فتنة المرأة ذات

---

(١) «لا تحزن» (ص: ٢٧٣، ٢٧٤).

المنصب والجمال لما دعته إلى نفسها ألم يدخل في حصن «معاذ الله» فتكسرت أمواج الشهوات على أسوار حصنه؟ وكذا تكون فاعلية الأذكار في تثبيت المؤمنين، وذكر الله عزَّ وجلَّ هو الحصن الذي يتحصن به المسلم من أعدائه كما في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد والترمذي من حديث الحارث الأشعري عن النبي ﷺ من حديث يحيى بن زكريا - عليهما السلام -: **«وآمركم أن تذكروا الله تعالى، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعًا حتى إذا أتى إلى حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله»**، فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة لكان حقيقًا بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله تعالى، وأن لا يزال لهجًا بذكره فإنه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر ولا يدخل عليه عدوه إلا من باب الغفلة، فهو يرصده فإذا غفل وثب عليه وافترسه، وإذا ذكر الله انخنس عدو الله تعالى وتصاغر وانقمع حتى يكون كالوصع وكالذباب ولهذا سمي الوسواس الخناس؛ أي يوسوس في الصدور فإذا ذكر الله تعالى خنس - أي كف وانقبض -، وقال ابن عباس: **«الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله تعالى خنس»**.

الثانية عشرة - الثقة بنصر الله وأن المستقبل لهذا الدين:

نحتاج إلى الثبات كثيرًا عند تأخر النصر حتى لا تزل قدم بعد ثبوتها، قال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٦-١٤٧).

ولما أراد رسول الله ﷺ أن يثبت أصحابه المعذبين أخبرهم بأن المستقبل للإسلام في أوقات التعذيب والمحن فماذا قال؟! جاء في حديث خباب مرفوعًا

عند البخاري: **«وليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله والذئب على غنمه»**، فعرض أحاديث البشارة بأن المستقبل للإسلام على الناشئة منهم في تربيتهم على الثبات»[1] اهـ.

فمن كان يظن أن الإسلام سينتصر على أهل الكفر عندما أحاطوا بالنبي ﷺ في غزوة الأحزاب وعلى الرغم من شدة الخوف الذي كان فيه الصحابة حتى قال المنافقون: ﴿**وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا**﴾ (الأحزاب: ١٢)، في وسط ذلك الحصار الذي صوره الله بقوله: ﴿**إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا**﴾ (الأحزاب: ١٠).

فأهل مكة قد جاءوا بحدهم وحديدهم يحادون الله ورسوله واليهود قد غدروا والمنافقون يقومون بحرب نفسية، في هذا الموقف يحتاج المسلم إلى ما يثبت به فؤاده، قال الحافظ ابن حجر في (الفتح): ووقع عند أحمد والنسائي في هذه القصة زيادة بإسناد حسن من حديث البراء بن عازب قال: «لما كنا حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق عرض لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ فيها المعاول اشتكينا ذلك إلى النبي ﷺ فجاء فأخذ المعول فضرب ضربة فكسر ثلثها وقال: **«الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله لأبصر قصورها الحُمْر الساعة»**، ثم ضرب الثانية فقطع الثلث الآخر، فقال: **«الله أكبر، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض»**، ثم ضرب الثالثة وقال: **«بسم الله»**، فقطع بقيَّة الحجر، فقال: **«الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا»**[2].

---

(١) «وسائل الثبات» (ص: ٢٦، ٢٧).

(٢) «فتح الباري» (جـ٧، ص: ٤٥٨).

وهكذا ربط النبي ﷺ على قلوب أصحابه وثبت أقدامهم وأخبرهم بأن الغلبة للحق وأهله والعاقبة للمتقين فزادهم ذلك إيمانًا مع إيمانهم وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٢٢).

يقول عبد الله ناصح علوان: «إن التفاؤل بالنصر - يا شباب - هو الذي يهيئ النصر، وإن القوة المعنوية في الأمة هي التي تدفع شبابها وأبناءها إلى تحقيق المزيد من الانتصارات الحاسمة في كل زمان ومكان.. وإن الله سبحانه مع المتقين المخلصين المجاهدين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والحافظين لحدود الله .. ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ (القصص: ٥)، فما عليكم - يا شباب الإسلام - إلا أن تقطعوا من نفوسكم دابر اليأس والقنوط وتقبلوا على الدعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله بروح متفائلة وأمل بسام.. عسى الله سبحانه أن يحقق على أيديكم نصر الإسلام الأكبر ودولة المسلمين العتيدة.. وما ذلك على الله بعزيز»[1]. اهـ.

الثالثة عشرة - التأمل في نعيم الجنة وعذاب النار:

يقول الشيخ محمد المنجد: «والجنة بلاد الأفراح وسلوة الأحزان ومحط رحال المؤمنين والنفس مفطورة على عدم التضحية والعمل والثبات إلا بمقابل يهون عليها الصعاب ويذلل لها ما في الطريق من عقبات ومشاقٍّ، فالذي يعلم الأجر تهون عليه مشقة العمل وهو يسير ويعلم بأنه إذا لم يثبت فستفوته جنة عرضها السموات والأرض، ثم إن النفس تحتاج إلى ما يرفعها

---

(١) «دور الشباب في حمل رسالة الإسلام» (ص: ٣٣، ٣٤).

من الطين الأرضي ويجذبها إلى العالم العلوي، وكان النبي ﷺ يستخدم ذكر الجنة في تثبيت أصحابه ففي الحديث الحسن الصحيح: مر رسول الله ﷺ بياسر وعمار وأُم عمَّار وهم يؤذون في الله تعالى فقال لهم: «**صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة**»[١].

وكذلك كان النبي ﷺ يقول للأنصار: «**إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**»[٢]، وكذا من تأمل حال الفريقين في القبر والحشر والحساب والميزان وسائر منازل الآخرة...[٣].

وها هو ﷺ يبث الثقة ويثبت الأقدام في غمرة القتال بالجنة وما أعد الله فيها لأصحابها، عن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سمعت أبي رضي الله عنه وهو بحضرة العدو - أي في المعركة - يقول: قال رسول الله ﷺ: «**إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف**»[٤]، فقام رجل رثُّ الهيئة فقال: يا أبا موسى أنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا؟، قال: نعم، فرجع إلى أصحابه فقال: أقرأ عليكم السلام - يعني يودعهم - ثم كسر جفن سيفه وألقاه ثم مشى إلى العدو فضرب حتى قُتل، وروي أن المشركين لما دنوا - أي من المسلمين في غزوة بدر - قال رسول الله ﷺ: «**قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض**»، فقال عمرو بن الحمام رضي الله عنه: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض، قال: «**نعم**»، قال: بخٍ بخٍ! - يتعجب - قال رسول الله ﷺ: «**ما حملك على ذلك؟**»،

(١) رواه الحاكم (جـ٣، ص: ٣٨٣)، وهو حسن صحيح.
(٢) البخاري (٢٩١٤)، ومسلم (١٧٥٣).
(٣) «وسائل الثبات» (٣٥، ٣٦).
(٤) رواه البخاري (٢٦٠٧)، ومسلم (٣٢٧٦).

قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: **«فإنك من أهلها»** فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها حياة طويلة، فرمى ما كان معه من التمر ثم قاتلهم وهو يقول:

ركضا إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد وكل زاد عرضة للنفاد
غير التقى والبر والرشاد

فمازال يقاتل حتى قُتل[1].

ما الذي ثبت أقدام هؤلاء الأبطال؟

إنه تأمل تلك الجنة ونعيمها وما أعد الله لأهلها من نعيم مقيم... وها هو الإمام الأوزاعي لما دخل على عبد الله بن علي يقول: «فدخلت والله ما تصورت في تلك اللحظة إلا عرش الرحمن بارزا والمنادي ينادي فريق في الجنة وفريق في السعير، فوالله ما رأيته أمامي إلا كذباب، والله ما دخلت بلاطه حتى بعت نفسي من الله جلَّ وعلا..، يقول عائض القرني تحت عنوان (ذكِّر نفسك بجنة عرضها السموات والأرض): «إن جعت في هذه الدار أو افتقرت أو حزنت أو مرضت أو بخست حقًا أو ذقت ظلمًا فذكِّر نفسك بالنعيم، إنك إن اعتقدت هذه العقيدة وعملت لهذا المصير تحولت خسائرك إلى أرباح وبلاياك إلى عطايا، إن أعقل الناس هم الذين يعملون للآخرة لأنها خير وأبقى وإن أحمق وأبله هذه الخليقة هم الذين يرون أن هذه الدنيا هي قرارهم ودارهم ومنتهى أمانيهم

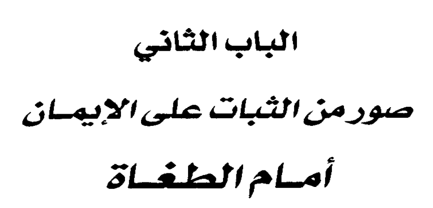
(١) «لا تحزن» (ص: ٤٢٧-٤٢٨).

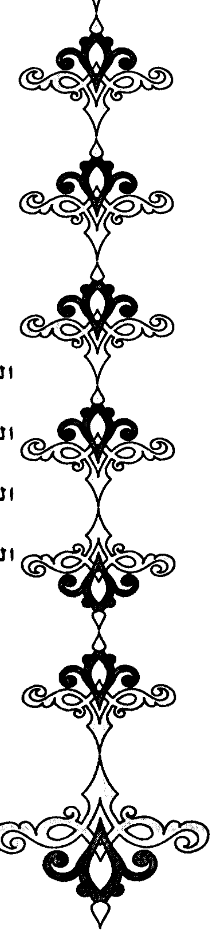
فتجدهم أجزع الناس عند المصائب وأندمهم عند الحوادث، لأنهم لا يرون إلا حياتهم الزهيدة الحقيرة لا ينظرون إلا إلى هذه الفانية، لا يتفكرون في غيرها ولا يعلمون سواها، فلا يريدون أن يعكر لهم سرورهم ولا يكدر عليهم فرحهم، ولو أنهم خلعوا حجاب الران عن قلوبهم وغطاء الجهل عن عيونهم لحدثوا أنفسهم بدار الخلد ونعيمها ودورها وقصورها، ولسمعوا وأنصتوا لخطاب الوحي في وصفها إنها والله الدار التي تستحق الاهتمام والكد والجهد.. إلى أن قال: إذا كان المصير إلى هذه الدار فلتخف المصائب على المصابين ولتقر عيون المنكوبين ولتفرح قلوب المعدمين، فيا أيها المسحوقون بالفقر.. المنهكون بالفاقة.. المبتلون بالمصائب اعملوا صالحًا لتسكنوا جنة الله وتجاوروه تقدست أسماؤه ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (الرعد: ٢٤)»[1].



(١) «لا تحزن» (ص: ٤٢٧-٤٢٨).

الباب الثاني





الفصل الأول - ثبات الأنبياء والرسل.

الفصل الثاني - ثبات أتباع الأنبياء والرسل ممن كانوا قبلنا.

الفصل الثالث - ثبات الصحابة رضي الله عنهم.

الفصل الرابع - ثبات التابعين.

الفصل الأول

ثبات الأنبياء والرسل

أولاً - ثبات نوح عليه السلام

دعا نوح عليه السلام قومه إلى الاعتراف بوحدانية الله وعدم الإشراك به وأن لا يعبدوا معه صنمًا ولا تمثالاً ولا طاغوتًا، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف: ٥٩)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (المؤمنون: ٢٣)، إن دعوة نوح لقومه خلال ألف سنة إلا خمسين عامًا تتلخص في قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾.

وكان نوح عليه السلام حريصًا على نجاة قومه من الهلاك لا يرجو لهم إلا الخير ولا ينتظر منهم مكافأة أو أجرًا ولهذا تلطف في خطابهم وسلك في دعوته لهم كل سبيل ومن اشهر ذلك.

١ - فمن الأدلة على شفقته ومحبته لهم قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف: ٥٩)، ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ (هود: ٢٦).

٢ - ويضع نوح عليه السلام الأمور في مواضعها الصحيحة، قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (هود: ٣١).

٣ ـ وكان عليه السلام لا ييأس ولا يقنط من رحمة الله ولهذا فهو يواصل الليل مع النهار والسر مع الإعلان قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ (نوح: ٥-٩)، ألف سنة إلا خمسين عامًا قضاها نوح عليه السلام في الدعوة إلى الله دون كلل ولا ملل، وكلما أعرض قومه غير وبدل في أسلوبه وهذا يعني أنه كان يحاسب نفسه فإذا أعرض قومه عن الدعوة العلنية عاد يبلغهم الدعوة بصورة سرية وفي جميع الحالات كان رحيمًا بهم خائفًا عليهم عذاب يوم أليم.

ولقد كان نوح عليه السلام قمة في الصبر وآية من آيات الله في الحلم والأناة وسعة الصدر، وأمة في الجد والمثابرة وطودًا شامخًا في التواضع وإنكار الذات.. وفوق ذلك كله ما كان يرجو منهم أجرًا ولا مكافأة، ولا كان يتخذ من الدعوة وسيلة لجمع المال وإحراز المكاسب، فهل يتعظ بذلك الدعاة الذين سرعان ما يستولي اليأس على نفوسهم ويسيئون الظن بأقوامهم فيتسرعون في إصدار الأحكام الظالمة عليهم وينهزمون أمام أية صدمة يتعرضون لها؟!! وهل يتعظ بذلك الدعاة الذين يقدسون ذواتهم ولا يقبلون من إخوانهم نقدًا أو نصحًا ولا يدعون إلى الله إلا بأجر؟!![1].

موقف الملأ وثبات نوح عليه السلام:

رغم هذه الرحمة الرحيمة التي كانت تفيض من نوح عليه السلام على قومه إلا أن هؤلاء القوم لا أجد لهم مثالاً إلا كما قال النبي ﷺ ـ في الحديث الطويل ـ:

(١) «منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله» (ص: ٥٧).

«وأصاب طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأ.. ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»[(١)].

فهؤلاء الملأ لم تنفع فيهم الموعظة ولا التذكير بنعم الله تعالى، ولهذا فقد شن الملأ حربًا شعواء على نوح ﷺ وأدبروا يسعون في الأرض فسادًا واستخدموا وسائل كثيرة ودعايات متناقضة في مواجهة أول رسول إلى الأرض.

١ ـ مما أخذه الملأ على نوح أن أتباعه كانوا فقراء مستضعفين ولم يستجب لدعوته أحد من الأشراف والسادة، قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ (هود: ٢٧)، وقالوا له أيضًا: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ (الشعراء: ١١١).

ومازال لهذه الطبقية الشاذة الهمجية جذورًا راسخة في عصرنا الذي يسمى بعصر التقدم والمدنية، فبعض المنسوبين إلى العلم يتطاولون على الذين لا علم عندهم، والأغنياء المترفون ـ الرأسماليون والأقطاعيون ـ يحتقرون العمال الكادحين والفقراء المدقعين ولو كانوا أصحاب مواهب فذة، وأصحاب الوظائف الكبيرة يزدرون عامة الناس ويتخذون من أنفسهم أربابًا من دون الله...

وهذه كلها مقاييس جاهلية مهما نعق دعاتها بالمساواة والعدل، ولله سبحانه وتعالى مقياس ثابت لا يتزعزع، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣)، إن المتقين أعز خلق الله وأرفعهم شأنًا، ولو كانوا شعثًا غُبرًا لا يملكون مالاً أو جاهًا.. ولهذا كان رد نوح على قومه ردًا كله ثبات على تلك القيم التي يدعوا إليها، فلم يحاول نوح ﷺ أن يتنازل عن بعض المبادئ إرضاءً لأعدائه كما نرى

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي موسى.

من رعاع المسلمين الذين يتملصون عن مبادئهم وعن دينهم بل عن دستورهم من أجل إرضاء عيون أعدائهم.

قال نوح ﷺ: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ١١٤)، فهم مؤمنون، وكفاهم ذلك نسبًا وشرفًا.

٢ - ثم شن أعداء الإسلام حملة إعلامية على نوح ﷺ وعلى دعوته، فتارة يشيعون بين الناس أنه ضال: ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ (الأعراف: ٦٠)، وتارة يتهمونه بالكذب ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ (هود: ٢٧)، وتارة يقولون: إنه مجنون ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (المؤمنون: ٢٥)، وهكذا تنقلب الموازين وتتذبذب القيم، وكل إناء بما فيه ينضح.. وها هم أحفادهم يشنون تلك الحرب على الإسلام والمسلمين، فمن اعتصم وتمسك بدينه صار إرهابيًا من نادى بالرجوع إلى الله وكتابه وسنة نبيه قالوا: متطرف أصولي!! ولكن الحق أبلج والباطل لجلج، والباطل ساعة والحق إلى قيام الساعة.

وما على العنبر الفواح من حرج ... إن مات من ريحه الزبال والجعل

فوقف نوح ﷺ شامخ الرأس عزيزًا بدينه ومبادئه في ثبات الرسل أولي العزم وقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ (هود: ٣٥)، وبلغ الحمق بقوم نوح منتهاه عندما صاروا يستعجلون عذاب الله الذي يحدثهم عنه نبيهم، بل يسخرون من نوح وهو يصنع الفلك قائلين له: قد كنت نبيًا فأصبحت نجارًا، ومبعث السخرية وذاك الاستعجال اعتقادهم أن نوحًا ليس صادقًا ولن يحل بهم عذاب أو هلاك، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (هود: ٣٢)، وعندما أعوزتهم الحجة التي

يردون بها على منطق نوح وأدلته الواضحة راحوا يهددونه بالرجم والقتل ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ (الشعراء:١١٦)[١]، وهكذا يسير أتباع قوم نوح على منهج قومهم وأشباههم، فإذا فشلت المحاورة وانتصر الحق في حلبة المناظرة لم يجد هؤلاء إلا القوة والتهديد والوعيد والسجن والرمي في غيابات المعتقلات، ولكنها محاولات كلها فاشلة لأن نور الحق سيقضي على خفافيش الظلام، وفي النهاية لن تجد لها مكان إلا جهنم وبئس القرار.. لأن أتباع الحق لن يتنازلوا عن عقيدتهم طرفة عين.

تالله ما الدعوات تهزم بالأذى	**أبداً وفي التاريخ بر يميني**
ضع في يدي القيد ألهب أضلعي	**بالسوط ضع عنقي على السكين**
لن تستطيع حصار فكري ساعة	**أو نزع إيماني ونور يقيني**
فالنور في قلبي وقلبي في يدي ربي	**وربي ناصري ومعيني**

فلما حسم الباري سبحانه القضية بين نوح وقومه وأخبره أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، حيث قال تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (هود:٣٦)، عندها رفع نوح يديه: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ (نوح:٢٦-٢٨)، ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ (القمر:١٠-١٢).

وهكذا انتصر الحق بعد ألف سنة إلا خمسين عامًا، وثبت نوح ﷺ وعلَّم الدعاة والقائمين على الدعوة أنه لا يأس من رحمة الله وأن النصر مع الصبر.

---

(١) «منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله» (ص: ٧٠).

ومن الدروس المستفادة ما قاله سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «إن الوشيجة التي يتجمع عليها الناس في هذا الدين وشيجة فريدة تتميز بها طبيعة هذا الدين وتتعلق بآفاق وآماد وأبعاد وأهداف يختص بها هذا المنهج الرباني الكريم، إن هذه الوشيجة ليست وشيجة الدم والنسب، وليست وشيجة الأرض والوطن، وليست وشيجة القوم والعشيرة، وليست وشيجة اللون واللغة، وليست وشيجة الجنس والعنصر وليست وشيجة الحرفة والطبقة، إن هذه الوشائج جميعًا قد توجد ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد كما قال سبحانه وتعالى لعبده نوح عليه السلام وهو يقول: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ (هود:٤٥)، ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ (هود:٤٦)، ثم بين له لماذا يكون ابنه ليس من أهله ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ (هود:٤٦)، إن وشيجة الإيمان قد انقطعت بينكما يا نوح ﴿فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (هود:٤٦)، فأنت تحسب أنه من أهلك ولكن هذا الحسبان خاطئ أما المعلوم المستيقن فهو أنه ليس من أهلك ولو كان هو ابنك من صلبك»[1].

وقال ـ رحمه الله ـ: «ثم نقف الوقفة الأخيرة مع قصة نوح لنرى قيمة الحفنة المؤمنة في ميزان الله سبحانه، إن حفنة من المسلمين من أتباع نوح عليه السلام تذكر بعض الروايات أنهم اثنا عشر هم كانوا حصيلة دعوة نوح في ألف سنة إلا خمسين عامًا كما يقرر المصدر الوحيد المستيقن الصحيح في هذا الشأن، إن هذه الحفنة وهي ثمرة ذلك العمر الطويل والجهد الطويل قد استحقت أن يغير الله لها المألوف من ظواهر هذا الكون وأن يجري لها ذلك الطوفان الذي يغمر كل شيء وكل حي في المعمور وقتها من الأرض وأن يجعل هذه الحفنة وحدها وارثة الأرض بعد ذلك وبذرة العمران فيها والاستخلاف من جديد»[2].

---

(١) «في ظلال القرآن» (٤/ ١٨٨٦).

(٢) «في ظلال القرآن» (٤/ ١٨٩٢).

ويقول محمد زين العابدين: «كان نوح ﷺ مع نشاطه في الدعوة الذي تضرب به الأمثال شديد الصلة بالله كثير الالتجاء إليه، وليراجع من شاء الآيات في قصة نوح التي تكون بدايتها: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ...﴾، وقد سماه الله عبدًا شكورًا، فمن الله وحده كان نوح ﷺ ينشد النصر وما كان وهو يواصل الليل مع النهار يعلق آمالاً على أحلاف يعقدها مع مشركين ضد مشركين، ولا كان مغرورًا بقوته أو قوة أتباعه المادية، ومن الأدلة على قوة إيمانه بالغيب رده القاطع على سخرية قومه وهو في أشد حالات الضعف بأنه سيسخر منهم غدًا يوم ينصره الله، وكان الله قريبًا من عبده ورسوله نوح ﷺ في كل عمل من أعماله فعند صنع السفينة قال تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ (هود: ٣٧)، وعن السفينة وهي تجري في موج كالجبال قال تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ (القمر: ١٤)، أي بحفظنا وحراستنا وتقديرنا، ولن تتغلب جيوش الدنيا كلها على قلة مؤمنة يحفظها ويرعاها الله ورحم الله من قال:

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان

وفي مواضع كثيرة بيَّن الله لنا كيف استجاب لنوح ﷺ: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ﴾ (الأنبياء: ٧٦)، ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ (الصافات: ٧٥)، ونحن اليوم عندما نوثق صلتنا بالله ونكثر من الالتجاء إليه وننتظر النصر والتمكين منه وحده سينصرنا وسوف يأخذ أعداءنا أخذ عزيز مقتدر، فما بال كثيرٌ من الناس ينتظرون النصر من أمريكا أو من السوفيات أو من الأحلاف التي يعقدونها مع الكافرين أو يعتمدون على انحرافات بعضهم ويسمونها سياسة؟!!

ليس والله هذا الحل بحلٍّ، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها[1].

(١) «منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله» (٧٤-٧٥).

ثانيًا - ثبات هود عليه السلام

ترد سيرة هود عليه السلام في القرآن الكريم وهو مصدر معلوماتنا الوحيد والصحيح عن عاد ورسولهم هود عليه السلام أثناء استعراض موكب الإيمان من لدن آدم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم فنرى هودًا في هذا الموكب يحمل دعوة (لا إله إلا الله) إلى قومه (عاد) ويدعوهم وقد التوت بهم الطريق وانحرفوا عن الصراط المستقيم، وتفرقت بهم السُّبل تحت ضغط الشهوات التي يقودهم الشيطان إليها محاولاً أن يرضي حقده، وأن ينفذ وعده، وأن يمضي ببني آدم من خطام هذه الشهوات إلى جهنم. . ، فإذا بهود عليه السلام يواجه قومه بالهدى ويلوح لهم بالنور ويستروح بهم ريح الجنة ويحذرهم لفحات السموم ونزغات الشيطان الرجيم عدوهم القديم، إن هودًا عليه السلام حاول إنقاذ قومه «عاد» من الهاوية وخلال هذه المحاولة نلمح الصراع بين الهدى والضلال، وبين الحق والباطل، وبين الرسول الكريم وشياطين الإنس والجن، ثم نشهد مصارع المكذبين في النهاية ونجاة المؤمنين الموحدين بعد الإنذار والتذكير. . . ، هذا هو مجمل دعوة هود عليه السلام، وهيا لنرى ثباته عليه السلام عندما قلب له قومه ظهر المجن وأبدوا العداوة والبغضاء.

شن عاد على هود عليه السلام نفس الحملة الكاذبة التي شنها قوم نوح، فقالوا له: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (الأعراف:٦٦)، فرد هود عليه السلام وهو ثابت الجنان قوي الإيمان: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (الأعراف:٦٦-٦٧)، واتهموه بالبشرية ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ (المؤمنون:٣٤)، وذهبوا كل مذهب يشككون في الدعوة ذاتها ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا

نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (المؤمنون: ٣٥-٣٨).

ولا يجد الرسول أمامه من سبيل بعد أداء واجب البلاغ كاملاً إلا أن يفاصل قومه ويبـرأ من الشرك الذي يزاولونه مع التوكل على الله عـزَّ وجلَّ مع بيان أن عدم الاستجابة لداعي الله يعني اسـتبدال قوم عاد بغيرهم، واستئـصال شأفتهم، ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ (هود: ٥٤-٥٧).

وجاء الرد الإلهي متناسـبًا مع الظلم الذي ارتكبته عـاد في حق ربها ودينها ورسولها وشخصها ﴿ وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف: ٧٢)، ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ (هود: ٥٩-٦٠).

* وتظهر في قصة هود ﷺ معالم الثبات على الإيمان:

١ - البراءة من الشرك وأهله دون خوف أو وجل ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ ﴾ (هود: ٥٤-٥٥).

٢ - التوكل على الله في دعوته والإيمان بالقضـاء والقدر الذي يدفع صاحبه إلى الثبات والرسوخ دون أدنى شك أو ريب وأن الآجال بيـد الله تعالى فما شاء الله كـان وما لم يشـأ لم يكن ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ (هود: ٥٦-٥٧).

إذا آمن العبد بأن كل ما يصيبه مكتوب وآمن أن الأرزاق والآجال بيد الله فإنه يقتحم الصعاب والأهوال بقلب ثابت وهامة مرفوعة، وقد كان هذا الإيمان من أعظم ما دفع المجاهدين إلى الإقدام في ميدان النزال غير هيَّابين ولا وجلين وكان الواحد منهم يطلب الموت في مظانه ويرمي بنفسه في مضائق يظن فيها هلكته ثم تراه يموت على فراشه فيبكي أن لم يسقط في ميدان النزال شهيدًا وهو الذي كان يقتحم الأخطار والأهوال.

وكان هذا الإيمان من أعظم ما ثبت قلوب الصالحين في مواجهة الظلمة والطغاة لا يخافون في الله لومة لائم لأنهم يعلمون أن الأمر بيد الله وما قدر لهم سيأتيهم.

وكانوا لا يخافون من قول كلمة الحق خشية انقطاع الرزق، فالرزق بيد الله وما كتبه الله لعبده من رزق لا يستطيع أحدٌ منعه وما منعه لعبدٍ من عبيده لا يستطيع أحدٌ إيصاله إليه إلا الله[1].

ثالثًا ـ ثبات نبي الله وخليله إبراهيم عليه السلام

إبراهيم عليه السلام هو خليل الرحمن وهو أحد أولي العزم من الرسل المنصوص عليهم في آيتي الأحزاب والشورى حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (الأحزاب: ٧)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ...﴾ (الشورى: ١٣).

ولقد أمرنا سبحانه باتباع ملة إبراهيم والسير على نهجه في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ

---

(١) «القضاء والقدر» عمر الأشقر (١١١، ١١٢).

الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل: ١٢٣)، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ (النساء: ١٢٥)، وقصة إبراهيم عليه السلام كلها دروس وعبر تحتاج إلى أسفار كبيرة ولكنني سأقف مع بعض صور الثبات على الإيمان أمام الطغاة والمشركين.

أولاً - ثبات إبراهيم عند دعوته لقومه من عُبَّاد الأصنام:

وها هو خليل الرحمن يقف موقف الداعية التي امتلأ قلبه بالإيمان ذلك القلب الذي وصفه سبحانه بقوله: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الصافات: ٨٣-٨٤)، الذي ألهمه الله الحجة وأعطاه إياها حيث قال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ (الأنعام: ٨٣)، وهيا لنرى ذلك المشهد الذي يفيض بالثبات أمام قوم قد ألغوا عقولهم وعمت بصائرهم عن رؤية الحق، يقول الحق سبحانه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (الشعراء: ٦٩-٨٣).

* مشاهد الثبات في هذه الآيات:

١ - أنه عليه السلام كشف لهم عن حقيقة آلهتهم بأنها لا تنفع ولا تضر فلا هي تسمع ولا هي تدفع.

٢ ـ أنه ﷺ واجههم بأنه عدو لتلك الحجارة التي كان عليها الأجداد والتي عليها الآباء.

٣ ـ ثم بين لهم إلهه الذي يعبده وأن الإله الحق هو الذي تتوافر فيه هذه الصفات: الخالق، الهادي، الشافي، المحيي، المميت، الغفار، الرحيم، الوهاب، فهذا هو إلهي الذي أعبده، والذي لا أعبد ربًا سواه.

يقول الإمام الزمخشري: كان إبراهيم ﷺ يعلم أنهم عبدة أصنام ولكنه سألهم ليريهم أن ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة في شيء، إلى أن قال: لما أجابوه بجواب المقلدين لآبائهم قال لهم: رقوا أمر تقليدكم هذا إلى أقصى غايته وهي عبادة الأقدمين الأولين من آبائكم؛ فإن التقدم والأولية لا يكون برهانًا على الصحة، والباطل لا ينقلب حقًا بالقدم، وما عبادة من عبد هذه الأصنام إلا عبادة أعداء له ومعنى العداوة قوله تعالى: ﴿ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ (مريم:٨٢)، ولأن المغري على عبادتهم أعدى أعداء الإنسان وهو الشيطان، وإنما قال: «عدو لي» تصوير المسألة في نفسه على معنى أني فكرت في أمري فرأيت عبادتي لها عبادة للعدو فاجتنبتها وآثرت عبادة من الخير كله منه، وأراهم بذلك أنها نصيحة نصح بها نفسه أولاً وبنى عليها تدبير أمره لينظروا فيقولوا: ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه أولاً وما أراد لنا إلا ما أراد لنفسه ليكون أدعى لهم إلى القبول وأبعث على الاستماع منه، ولو قال: فإنه عدو لكم لم يكن بتلك المثابة، ولأنه دخل في باب من التعريض وقد يبلغ التعريض للمنصوح ما لا يبلغه التصريح لأنه يتأمل فيه فربما قاده التأمل إلى التقبل[1].

(١) «الكشاف» (٣/ ٣١٨).

ثانيًا - ثبات إبراهيم عند دعوته لعُبَّاد الكواكب:

قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الأنعام: ٧٣-٨٢).

يقول محمد زين العابدين تحت عنوان (كان إبراهيم لا يخشى إلا الله): بعض الذين يقرءون سيرة إبراهيم ﷺ تتعلق أذهانهم بانتصاراته المرموقة وتأييد الله له والوقوف معه ضد أعدائه في جميع محنه وابتلاءاته، وينسى هؤلاء أو يتناسون صعوبة الطريق الذي سلكه خليل الرحمن وغربته في قومه وشدة عداوة الناس له ومصائبه المتلاحقة التي عاناها قبل أن يكرمه الله بالنصر.

فإبراهيم ﷺ وهو يحطم الأصنام ما كان يعلم أبدًا أن قومه سيلقون في النار وأن الله سينقذه منها، وكل الذي كان يعلمه أن الطغاة سينتقمون منه وربما أقدموا على قتله.. ومع ذلك هان عليه الموت في سبيل الله كما هان في عينيه قوة الطاغوت وبطشه عندما تذكر قوة الله، وزهد في مغريات الدنيا وشهواتها وآمن بأنها لا تساوي عند الله جناح بعوضه.

وعندما هدده قومه وتوعدوه أجابهم بكل قوة وتصميم، قال تعالى على لسان إبراهيم: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا... ﴾، كيف أخاف من أصنامكم وأنا أعلم أنها حجارة صماء لا تضر ولا تنفع؟!!

كيف أخاف من قادتكم وطواغيتكم وهم ضعفاء وإن ملكوا المال والقوة.. كيف أخاف منهم وأنا أعلم أنه إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فهم أحق بالحق مني لأنهم عبدوا غير الله جلت قدرته وجحدوا آلاءه ونعمه وهم يرون آياته في كل شيء؟! أنتم أحق بالخوف مني لأن شبح الموت يطاردكم ولهيب جهنم ينتظركم، ولن تغني عنكم في ذلك اليوم الموعود أموالكم وما تملكون شيئًا يوم تعرضون على ربكم حفاة عراة غرلاً، ثم ينتقل خليل الرحمن من التخصيص إلى التعميم في حواره مع قومه ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾، الذين آمنوا بالله وأذعنوا واطمأنت قلوبهم لقضاء الله وقدره ولم يخلطوا إيمانهم بشرك أولئك لهم الأمن ولو كانوا في سجون الظالمين ومعتقلاتهم لأنهم فضلوا واختاروا العذاب على الفتن والموت على الحياة واشتاقوا للقاء الله تعالى وآثروا جواره على كل مغريات الدنيا.

أما الكافرون فحياتهم جحيم لا يطاق ورعب لا يُحتمل، قال تعالى: ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥١)، ومن مظاهر هذا الرعب الذي ألقاه الله في قلوب الذين أشركوا من الطواغيت أن كلا منهم يتمنى أن يسير في الشارع كغيره من الناس بل كأقل الناس غير أنه لا يجرؤ أن يسير ماشيًا على قدميه وتراه يخرج في سيارة ومعه الحرس ثم لا يشعر بالأمن بل ينتظر مصيره المحتوم في كل لحظة ويشك بأقرب الناس إليه ولو كانوا من خواص أقربائه وبطانته، وإذا مات

الطاغوت بدأ عند ربه حياة جديدة كلها عذاب وشقاء، أما المؤمنون فيدعون إلى الله ويجاهدون في سبيله وكل ما يصيبهم خير وسعادة، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ (براءة: ٥٢)، ولقد كانت هذه المعاني واضحة جلية في نفوس الصحابة والتابعين وأعلام السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين.

سأل قائد جيوش الفرس (رستم) ربعي بن عامر: ما جاء بكم؟! فقال ربعي: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبدًا حتى نفضي إلى موعود الله، قال: وما موعود الله؟! قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى والظفر لمن بقي.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «ما يصنع أعدائي بي! أنا جنتي وبستاني في صدري، أين رحت فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة. وكان يقول: المحبوس من حبس قلبه عنه ربه، والمأسور من أسره هواه. ولما أدخل ووصل إلى سجن القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (الحديد: ١٣).

من أجل هذا انتصر إبراهيم ﷺ كما انتصر خاتم الأنبياء ﷺ وأصحابه والتابعون ومن جاء بعدهم من رجال خير القرون، ولن تهزم أمة يقودها علماء ودعاة يعتقدون بأن السجن خلوة والنفي سياحة والموت شهادة، وعندما فقدت أمتنا هذه النماذج من الرجال الدعاة سلط الله علينا أعداءنا وصرنا هدفًا لشذاذ الآفاق وحثالة الأمم وأصبح المسلمون غثاء كغثاء السيل لا يَرْهَبهم أحد ولا

يحسب لهم أي حساب، ومن المؤسف جدًا أن كثيرًا من الدعاة إذا سمع أحدهم أن السلطة تراقب تحركاته اعتراه الخوف واشتد قلقه وصار يشك بأقرب الناس إليه وربما تحول الخوف من السلطة عند بعضهم إلى مرض عقلي مزمن والعياذ بالله. . ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٧٥)[١].

ثبات إبراهيم عليه السلام عندما ألقوه في النار:

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾ (الأنبياء: ٥١-٧٠)، اعترف قوم إبراهيم في ذلك اليوم العصيب بأنهم هم الظالمون لأنهم يعبدون آلهة لا تنطق ولا تسمع وهذه أول مرة يفكرون فيها بعجز أصنامهم وضعفها غير أن صحوة ضمائرهم لم تستمر إلا لحظات ثم انتصر صوت الشيطان في نفوسهم فنكسوا على رؤوسهم وأصروا على كفرهم

---

(١) «منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله» (ص: ١٤١-١٤٣).

وأصدروا قرارهم الجائر قال تعالى: ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ (الأنبياء:٦٨)، وهذا هو سلاح أهل الباطل الذي يلجأون إليه في مواجهة أنبياء الله ورسله وحملة الإسلام في كل عصر ومصر.

أجمع قوم إبراهيم على قتل نبيهم انتصارًا لآلهتهم واختاروا له أفظع قتلة وهي الإحراق بالنار، وليس في أي نار بل بنوا له بنيانًا شاهقًا ووضعوا فيه كميات كبيرة من الحطب شارك القوم فيها كلهم في جمعها قال تعالى: ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴾ (الصافات:٩٧)، وفي رواية لابن أبي حاتم من طريق السدي أن المرأة لتمرض فتقول: لئن عافاني الله لأجمعن لإبراهيم حطبًا، وقال ابن إسحاق وجمعوا الحطب ثم أوقدوه فاشتعلت النار واشتدت حتى إن كان الطائر ليمر بجانبها فيحترق من شدة وهجها، ثم قيدوا إبراهيم ووضعوه في المنجنيق مغلولاً.

ثبات إبراهيم عليه السلام في هذه المحنة:

وفي تلك اللحظات كان إيمان إبراهيم بربه أشد رسوخًا من الجبال الرواسي وكان ثقته بنصر الله وتأييده أقوى من الأرض ومن عليها؛ ولهذا كان غير مكترث لجماهيرهم المحتشدة ونيرانهم الملتهبة وكلماتهم النابية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا: ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (آل عمران:١٧٣)، وفي رواية أخرى لابن عباس قال: كان آخر قول إبراهيم حين ألقي في النار: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[1].

---

(١) «منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله» (١٢٧، ١٢٨).

وهكذا تجلت ثقة إبراهيم عليه السلام بربه، فلم يلتجأ إبراهيم عليه السلام إلا إلى الله سبحانه وتعالى فجاء الجواب والنصر من الله وهو الذي بيده النصر ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾، ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ ﴾، وهكذا يجب على الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى أن يبلغوا دعوته ولا يخافوا إلا من الله سبحانه وتعالى ﴿ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ ﴾ (آل عمران: ١٧٥)، وإن النصر مع الصبر، وإن الفرج مع الكرب ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ (يوسف: ٢١).

رابعًا ـ ثبات نبي الله موسى عليه السلام

نبي الله موسى عليه السلام هو كليم الله تعالى؛ فالله سبحانه كلَّمه دون واسطة، قال جلَّ جلاله: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ (الأعراف: ١٤٣)، ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ (النساء: ١٦٤)، وهو أحد أولي العزم من الرسل، وقصة موسى عليه السلام ملحمة دعوية بين الحق والباطل، فيها من الدروس والعبر الكثير والكثير، فهيا أخي المسلم لنقف مع بعض المشاهد التي ظهر فيها الثبات على الإيمان أمام طغيان أهل الكفر والعصيان.

الصورة الأولى ـ ثبات موسى عند مواجهة فرعون:

يصور المولى سبحانه تلك المواجهة التي دارت بين نبي الله موسى عليه السلام وعدو الله فرعون ـ عليه لعنة الله ـ وكيف أن موسى عليه السلام كان أثبت الناس إيمانًا وأقواهم حجة يقول سبحانه: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا

وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ (الشعراء: ١٠-٤٨).

في هذا المشهد الرهيب الذي واجه فيه موسى وهارون أعتى مجرمًا عرفه التاريخ الذي غَرَّه ملكه وحرسه وسلطانه حتى قال: ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ (النازعات: ٢٤)، وقف موسى ﷺ ليكشف لذلك الغر المأفون عن تلك الحقيقة التي يهرب منها ـ حقيقة «لا إله إلا الله» ـ إنها حقيقة الخالق والمخلوق، الخالق الذي خلق السموات والأرض، إنها حقيقة الربوبية ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ (الدخان: ٨)، إنها حقيقة الملكية التي لا تنبغي إلا لواحد ألا وهو الواحد الأحد

الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. . . وقف موسى عليه السلام على أرض ثابتة قد أيده الله بالآيات وخوارق العادات، ولم لا وهو الملقب بالقوي الأمين هدده فرعون بالسجن، وتلك هي سنة الطغاة مع أولياء الرحمن، ولكن ذلك لم يفل عزمه ولم يوهن قوته بل طلب منه أن يكون الأمر علانية ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ (طه:٥٩)، فذهب فرعون ﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (الشعراء:٣٨).

قال القاسمي: ولما وثقوا من فرعون ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾، قيل: خيَّروا موسى إظهاراً للجلادة فلم يبالوا بتقدمه أو تأخره.

قال: ألقوا، فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴿ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ (الأعراف:١١٦)، وإنما سوغ لهم التقدم ازدراءً لشأنهم وقلة مبالاة بهم وثقة بما كان بصدده من التأييد الإلهي وأن المعجزة لن يغلبها سحر أبداً ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴾ (الأعراف:١١٧-١١٩).

يقول صاحب (الظلال) عليه رحمة الكبير المتعال: «إنه الباطل ينتفش ويسحر العيون ويسترهب القلوب ويخيل إلى الكثيرين أنه غالب وأنه جارف وأنه محيق، وما هو إلا أن يواجه الحق الهادئ الواثق حتى ينفقئ كالفقاعة، وينكمش كالقنفذ، وينطفئ كشعلة الهشيم، وإذا الحق راجح الوزن ثابت القواعد عميق الجذور، والتعبير القرآني هنا يلقي هذه الظلال وهو يصور الحق واقعًا إذا يقول ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ ﴾ ثبت واستقر وذهب ما عداه فلم يعد له وجود، ﴿ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴾ (الأعراف:١١٩)، ولكن المفاجأة لم تختم بعد والمشهد ما يزال

يحمل مفاجأة كبرى ﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ (الأعراف: ١٢٠-١٢٢)، إنها صولة الحق في الضمائر ونور الحق في المشاعر، ولمسة الحق للقلوب المهيأة لتلقي الحق والنور المبين. . .

إن السحرة هم أعلم الناس بحقيقة فَنِّهم ومدى ما يمكن أن يبلغ إليه، وهم أعرف الناس بالذي جاء به موسى إن كان من السحر والبشر أو من القدرة التي وراء مقدور البشر والسحر، والعالِم في فنه هو أكثر الناس استعدادًا للتسليم بالحقيقة فيه حين تنكشف له، لأنه أقرب إدراكًا لهذه الحقيقة مِن مَنْ لا يعرفون في هذا الفن إلا القشور ومن هنا تحول السحرة من التحدي السافر إلى التسليم المطلق الذي يجدون برهانه في أنفسهم علم يقين.

ولكن الطواغيت المتجبرين لا يدركون كيف يتسرب النور إلى قلوب البشر ولا كيف تُمازجها بشاشة الإيمان، ولا كيف تلمسها حرارة اليقين، فهم لطول ما استعبدوا الناس يحسبون أنهم يملكون تصريف الأرواح وتقليب القلوب[1].

الصورة الثانية - هلاك فرعون ونجاة موسى عليه السلام:

خرج موسى عليه السلام وبنوا إسرائيل من مصر بأمر الله تعالى، حيث قال المولى سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ

---

(١) «ظلال القرآن» (جـ٣، ص: ١٣٥).

(٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (الشعراء: ٥٢-٦٨).

وهكذا خرج فرعون بحده وحديده لمحاربة موسى ومن آمن معه، فلما تراءى الجمعان وظهر لكل ذي عينين أن فرعون وراءهم والبحر أمامهم فليس أمامهم سوى البحر وهنا شكوا لموسى ﷺ وهنا يظهر الثبات على الإيمان والثقة بنصر الرحمن، لم يعبأ موسى بهذا الجيش العرمرم، فقال لهم: إن كان فرعون مع أعوانه وجنوده ونحن قلة فالله معنا ومن كان الله معه فمعه القوة التي لا تُغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل، قال موسى: ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (الشعراء: ٦٢)، فلما تراءى الجمعان جاء المدد من صاحب المدد والعون من صاحب العون ﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾، هنا انتهت المشكلة فلم يقل له: اضرب بدرعك ولا بسيفك ولا برمحك؛ لأن النصر لا يعتمد على قوة السلاح وإنما يعتمد على قوة الإيمان وثبات الأركان فالسلاح بضاربه لا بحده والنصر للتقوى، فإذا انعدمت التقوى كان الانتصار للأقوى، إنها العصا معجزة معجزات موسى ﷺ ﴿ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ (البقرة: ٦٠)، انحلت المشكلة الاقتصادية، وذلك لأن حامل العصى عنده يقين وإيمان وعقيدة فأين حامل القرآن وهو كلام الرحمن؟ ﴿ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ (الأعراف: ١١٧)، فإذا النصر والتمكين، وإذا الهزيمة الساحقة ﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾، هذا هو تأثير العصى في البحر جعلته كالطود، فأين أثر القرآن الذي لو أنزله الله على جبل لكان حاله كما أخبر سبحانه وتعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الحشر: ٢١).

فيا ليت الأمة الإسلامية تعود إلى دستورها الأوحد القرآن والسنة حتى تثبت على إيمانها وينصرها الله على أعدائها.

خامسًا ـ ثبات نبي الله دنيال عليه السلام

تلك الصورة لنبي من أنبياء بني إسرائيل تعرض له ذلك الملك الذي سفك كثيرًا من الدماء الذي لا يعرف دينًا ولا ربًا إنه الطاغية «بختنصر» قام ليقضي على ذلك النبي، أودعه في السجن ثم بعد ذلك أخذ أسدين فجوعهما ثم أدخلهما عليه وبعد مرور خمسة أيام فتح السجن فوجد دنيال قائمًا يصلي والأسدين لم يعرضا له، فقال له بختنصر: أخبرني ماذا قلت فدفع عنك، قال: قلت: «الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره، الحمد لله الذي لا يخيب من رجاه، الحمد لله الذي لا يكل من توكل عليه إلى غيره، الحمد لله الذي هو ثقتنا حين تنقطع عنا الحيل، الحمد لله الذي هو رجاؤنا حين يسوء ظننا بأعمالنا، الحمد لله يكشف ضرنا، الحمد لله الذي يجزي بالصبر نجاة»[1].

إنه الإيمان بالله سبحانه وتعالى، إنه الثبات على الإيمان حتى الممات، لجأ إليه فهو الحميد الذي لا يضيع من وقف على بابه ولاذ بجنابه، إنه وقف يصلي ولم يلتفت إلى تلك الوحوش الضارية الجائعة، ولسان حاله:

رضاك رضاك يا مولاي عني ... فهل يرضيك أن قدمت نفسي

ذبحت الروح فيك وكل ذبح ... لغير هداك مقرون بنحس

---

(١) «البداية والنهاية» (جـ١، ص: ٤٢٨).

سادسًا ـ صور من ثبات النبي ﷺ

رسول الله ﷺ أعطى للدعاة في كل زمان ومكان المثل الأعلى في التضحية والصبر والثبات، فإن المشركين في مكة سلكوا مع النبي ﷺ مسالك شتى في الأذى وأساليب متباينة في الاضطهاد، ليثنوه عن دعوته ويصدوه عن أداء رسالته فما ضعف وما استكان.

ـ سلكوا معه طريق الإغراء والإغواء ليصدوه عن تبليغ الدعوة فما ضعف وما استكان.

ـ سلكوا معه الهزء والسخرية وإشاعة التهم ليصدوه عن تبليغ الدعوة فما ضعف وما استكان.

ـ وسلكوا معه طريق المقاطعة الاقتصادية الشاملة له ولمن آزره ليصدوه عن تبليغ الدعوة فما ضعف وما استكان، وقرروا أخيرًا اغتياله وملاحقته ليصدوه عن تبليغ الدعوة فما ضعف وما استكان، وكان الشعار الذي رفعه ﷺ في مكة: **«والله يا عمّ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه»**، وبعد الهجرة حاربه المشركون بحملات متعددة وحروب طاحنة ليستأصلوا دعوته وأتباعه فما كان ذلك يرده عن تبليغ الدعوة ونشرها في الأرض.

وبقي ﷺ يكافح في سبيل الله ويجاهد لإعلاء دينه، ويصبر على الأذى والمؤامرات والاعتداء حتى جاء نصر الله والفتح وقامت دولة الإسلام عزيزة كريمة[١].

---

(١) «دور الشباب في حمل رسالة الإسلام» (ص: ٣٦, ٣٧).

* ويقول القاضي عياض ـ رحمه الله ـ: وأما الشجاعة والنجدة فالشجاعة فضيلة قوة الغضب وانقيادها للعقل والنجدة ثقة النفس عند استرسالها إلى الموت حيث يحمد فعلها دون خوف.

وكان ﷺ منهما بالمكان الذي لا يجهل قد حضر المواقف الصعبة وفر الكماه والأبطال عنه غير مرة وهو ثابت لا يبرح ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح وما شجاع إلا وقد أحصيت له فرة وحفظت عنه جولة سواه . . . عن البراء وسأله رجل: أفررتم يوم حنين عن رسول الله ﷺ؟ قال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر، ثم قال: لقد رأيته على بغلته البيضاء وأبو سفيان آخذ بلجامها والنبي ﷺ يقول: **«أنا النبي لا كذب .. أنا ابن عبد المطلب»**[1].

قيل: فما رئي يومئذ أحد كان أشد منه، وقال غيره: نزل النبي ﷺ عن بغلته.

وذكر مسلم عن العباس قال: فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته نحو الكفار وأنا آخذ بلجامها أكفها إرادة ألا تسرع، وأبو سفيان آخذ بركابه ثم ينادي «يا للمسلمين» الحديث.

وقال ابن عمر: ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أرضى ولا أفضل من رسول الله ﷺ.

وقال علي رضي الله عنه: إنا كنا إذا حمى البأس ـ ويُروى: اشتد البأس واحمرت الحدق ـ اتقينا برسول الله ﷺ فما كان أحد أقرب إلى العدو منه، ولقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذٍ بأسًا.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم.

وقيل: كان الشجاع هو الذي يقرب منه ﷺ إذا دنا العدو لقربه، وعن أنس: كان النبي ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس، لقد فزع أهل المدينة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعًا قد سبقهم إلى الصوت واستبرأ الخبر على فرس لأبي طلحة عري والسيف في عنقه وهو يقول: «**لن تراعوا**»(١).

* وقال عمران بن حصين: ما لقي رسول الله ﷺ كتيبة إلا كان أول من يضرب، ولما رآه أُبي بن خلف وهو يقول: «أين محمد لا نجوت إن نجا»، وقد كان يقول للنبي ﷺ - حين افتدى يوم بدر - عندي فرس أعلفها كل يوم فرقًا من ذرة أقتلك عليها فقال له النبي ﷺ - وقد كان -: «**أنا أقتلك إن شاء الله**»، فلما رآه يوم أحد شد أُبي على فرسه على رسول الله ﷺ وقد كان، فاعترضه رجال من المسلمين فقال النبي ﷺ: «**هكذا**» - أي خلوا طريقه - وتناول الحربة من الحارث بن الصمة فانتفض بها انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله النبي ﷺ، فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مرارًا.

وقيل: بل كسر ضلعًا من أضلاعه فرجع إلى قريش يقول: قتلني محمد، وهم يقولون: لا بأس بك، فقال: لو كان ما بي بجميع الناس لقتلهم، أليس قد قال: أنا أقتلك، والله لو بصق عليَّ لقتلني، فمات بسرف في قفولهم - رجوعهم - إلى مكة»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.
(٢) «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» (ص:١٠٦-١٠٨).

ومن صور ثباته ﷺ ثباته أمام تلك العروض المغرية التي بذلها له أهل مكة:

يقول الشيخ أحمد فريد ـ حفظه الله ـ: ولما أكثر المشركون من التعذيب والاستمرار في السخرية بالمسلمين رجاء أن يصدهم ذلك عن دينهم، وكان المسلمون لا يزدادون بذلك إلا إيمانًا ويقينًا، ولم يفلحوا في ذلك لجأوا إلى أسلوب آخر ـ بلغة العصر: أكثر دبلوماسية ـ فأرادوا أن يعرضوا على النبي ﷺ عروضًا لعله يرجع عما هو عليه أو يتنازل عن بعض الحق الذي يدعو إليه.

فمن هذه العروض أنهم أرسلوا عتبة بن ربيعة ليعرض على رسول الله ﷺ ما قد رآه حلاً للمشكلة فقال: يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من المكان في النسب وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا لعلك تقبل بعضها: إن كنت تريد بهذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفًا سودناك علينا فلا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا، وإن كان الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ، فلما فرغ من قوله تلا رسول الله ﷺ صدر سورة فصلت: ﴿حم (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (فصلت: ١-٧)، حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (فصلت: ١٣).

الفوائد والآثار الإيمانية:

قال الجزائري: إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها في الآتي:

١ ـ إثبات حيرة المشركين إزاء الدعوة المحمدية وإلى اليوم، بيان استعمال المشركين أسلوب المساومات لإحباط الدعوة وإطفاء نورها، ثبات النبي ﷺ ووقوفه كأنه جبلٌ أشم أمام المساومات والتحديات.

٢ ـ ولاشك أن هذا العرض المغري لو عرض على أصحاب الحل البرلماني لقالوا: ذلك ما كنا نبغي، يكون لنا الحكم والسلطان ثم نطبق شرع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولكن النبي ﷺ يعلم أن مقابل ذلك ثمن باهظ وهو المداهنة في قضية التوحيد أخطر قضية في الدين، وهي لا تقبل المداهنة، فطريق الرسل هو البداية بإصلاح القلوب والجوارح ثم بعد ذلك يفتح الله عزَّ وجلَّ عليهم أسباب العزة والنصر والتمكين.

٣ ـ عدم قبول هذه العروض والدخول في مساومات الكفار داخل ولاشك في أمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لنبيه ﷺ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الحجر: ٩٤)، فالإعراض عن المشركين يشمل الإعراض عن عروضهم ومساوماتهم ونلاحظ أن النبي ﷺ لم يناقش اقتراحاته فهي أسقط وأذل من أن يناقشها النبي ﷺ ولكنه وجد فرصة لأن يدعوه إلى الله عزَّ وجلَّ ويقرأ عليه القرآن والقلوب المستعدة للإيمان المهيأة له تنقاد وتلين به، أما القلوب القاسية فإنها لا تتأثر ولا تزداد إلا غيًا وضلالاً[1].

(١) «وقفات تربوية مع السيرة النبوية» (ص: ٨٨-٨٩).

ويقول عبد الله ناصح علوان[١]: تعالوا نتأسى بقدوة الثبات على المبدأ التي كانت صفة لازمة من صفاته ﷺ، وخلقًا أصيلاً من أخلاقه ﷺ، فما كان يصده عن دعوته الرياح الهوج مهما عصف، وما كان يرده عن تبليغ الرسالة الإسلامية الإحن السود مهما اشتدت، وكلما اشتدت عليه الأهوال ونزلت في ساحته المصائب ازداد صلابة وإيمانًا وامتلأ عزمًا ويقينًا، فلا يجد من سبيل سوى أن يناجي ربه داعيًا ويستعطفه راحمًا ويرجوه ناصرًا ويقول: **«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»**[٢].



(١) «حتى يعمل الشباب» (ص: ٣٥).

(٢) الحديث مع الخبر بتمامه أخرجه ابن كثير في «البداية والنهاية» (جـ٣، ص:١٣٣-١٣٤) من رواية ابن إسحاق، وأخرجه الطبراني في «الكبير»، والهيثمي، وفيه ابن إسحاق مدلس ثقة وبقية رجاله ثقات.

الفصل الثاني
ثبات أتباع الأنبياء والرسل ممن كان قبلنا

أولاً - ثبات أصحاب الأخدود

تلك القصة هي ملحمة من ملاحم الصبر والثبات على الإيمان، إنها استهانة بكل غالٍ ونفيس في سبيل الإيمان بالله سبحانه وتعالى. . إنها التضحية والفداء إنها حقيقة الإيمان التي لا تزول ولا تتزلزل مهما كانت الضغوط. . إنها الإيمان يتجلى في صور من الصمود أمام الباطل، إنها ملحمة الشهداء الذين كتبوا قصتهم بالدم وقدموها إلينا حتى نقتدي بهم وحتى لا نرهب طاغوتًا ولا ظالمًا. . ذكرها الله لنا في القرآن لتكون إحدى المثبتات على طريق الإيمان الذي رسمه سبحانه لنا. . إنه ليس مفروشًا بالورود والزهور وإنما هو طريق كله عقبات. . دماء وأشلاء صراخ وعويل. . قتل وتشريد. . حبس وتجويع. . على جنبات صراخ اليتامى وعويل الثكالى، فمن سلك ذلك الطريق فليوطن نفسه على الابتلاء والصبر والمصابرة والمرابطة. . وهيا لنرى تلك القصة كما يرسم مشاهدها سبحانه وتعالى: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ (البروج: ١-١٣)، إن النغمة القرآنية في تلك القصة نغمة حزينة باكية تصور في حروفها ومجموع كلماتها تلك الملحمة التي ثبت أبطالها أمام ذلك الطغيان وأمام ذلك العدوان، وكانت

الجريمة التي ارتكبها هؤلاء في زعم هؤلاء الطغاة، أنهم آمنوا بالله العزيز الحميد.. وها هم أحفاد هؤلاء الطغاة نراهم كل يوم في فلسطين وكشمير والبوسنة وكوسوفا وغيرها من بلاد المسلمين وجريمتهم أنهم مسلمون موحدون لله تعالى، وهيا لنشاهد أحداث هذه القصة مرة ثانية مع النبي ﷺ، روى مسلم عن صهيب الرومي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت فابعث إليَّ غلامًا أعلمه السحر، فبعث إليه غلامًا يعلمه فكان في طريقه إذا سلك راهب فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر.**

فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل، فأخذ حجرًا فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها، ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره، فقال الراهب: أي بُني انت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى وإنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل علي.

وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأوجاع، فسمع جليس للملك كان قد عمي فأتاه بهدايا كثيرة فقال: ما هنا لك أجمع إن انت شفيتني فقال: إني لا أشفي أحدًا إنما يشفي الله، فإن انت آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك: من رد عليك بصرك؟! قال: ربي، قال: ولك رب غيري؟! قال: ربي وربك الله، فأخذه فلم يزل به حتى دل على الغلام فجيء بالغلام، فقال له الملك: أي بُني قد بلغ من سحرك ما تبرئ به الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل؟ فقال: إني لا أشفي أحدًا إنما يشفي الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجيء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى،

فدعا بالمنشار فوضع في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه.

ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله.. فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور فتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به قال: وما هو؟ قال: أن تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع ثم خذ سهمًا من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل: بسم الله رب الغلام ثم ارمني فإنك إن فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهمًا من كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال: بسم الله رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم في صدغه فوضع يده في موضع السهم فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام.. آمنا برب الغلام، فأتى الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك قد آمن الناس.. فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخدت وأضرم النيران وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها أوقيل له: اقتحم، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام: يا أمه اصبري فإنك على الحق».

مواطن الثبات في القصة:

١ ـ ثبات الراهب وجليس الملك: حيث أنهم وضعوا في رأسهما المنشار وشقوهما نصفين، وعلى الرغم من شدة العذاب إلا أنه عند المؤمنين عَذْبٌ وحلو حالهما.

نسيت في حبك الدنيا وما حملت   وبعت من أجلك الأنفاس والنفسا

٢ ـ ثبات الغلام: ويظهر الثبات في مواطن منها ثباته عندما صعدوا به الجبل، فهم رجال أشداء مسلحين وهو مازال غلامًا، ولكنه امتلأ قلبه بالإيمان فهو واثق بنصر الله تعالى وأن النصر من عند الله، فكان سلاحه في هذه المواطن «**اللهم اكفنيهم بما شئت**» إنه رسوخ الإيمان بالله الواحد الديان.

ـ ومن ثباته ﷺ: أنه لم يهرب من ميدان المعركة لا في المرة الأولى ولا في الثانية لأنه يعلم أنه صاحب دعوة وأنه حمل أمانة لابد أن يبلغها للناس، بل عاد إلى الملك في تحدٍّ لذلك الطغيان.

ـ ومن ثباته: أنه أوضح لذلك الملك الطاغية عجزه وضعفه وأنه لا يملك نفعًا ولا ضرًا فكيف يكون إلهًا يعبد من دون الله، فلو كنت إلهًا حقًا لقتلتني ولكنك عاجز كل العجز.

ـ ومن ثباته أيضًا: أنه أوضح له الطريقة التي بها يستطيع أن يتخلص منه؛ فأمره أن يجمع الناس في صعيد واحد ويأخذ سهمًا من كنانته ـ يعني الغلام ـ وليست من كنانة الملك وأن يضع السهم في كبد القوس ـ وكأنه أبله لا يعرف أين يوضع السهم وذلك أبلغ في احتقاره ـ ثم أمره أن يقول ويقر إقرار المضطر أمام جميع الناس بأن النافع الضار هو الله فيقول «بسم الله رب الغلام» فـفعل الملك ومات الغلام ولكن ما ماتت دعوته فآمن الناس جميعًا وقالوا في نَفَس واحد: آمنا برب الغلام.

٣ ـ ثبات الناس واختيارهم نار الدنيا على نار الآخرة: حيث أن الناس أخذوا يقتحمون أفرادًا وجماعات في ذلك الأخدود فهي كانت في الظاهر نار محرقة

إلا أنها عند المؤمنين روضة من رياض الشهادة في سبيل الله، أما هؤلاء الذين أجرموا فقد أعد الله لهم نارًا تلظى.

- يقول سيد قطب - رحمه الله -: «﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ (البروج: ١٠)، ومضوا في ضلالتهم سادرين لم يندموا على ما فعلوا ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ (البروج: ١٠)، وينص على الحريق وهو مفهوم من عذاب جهنم ولكنه ينطق به وينص عليه ليكون مقابلاً للحريق في الأخدود وبنفس اللفظ الذي يدل على الحدث، ولكن أين حريق من حريق في شدته أو مدته؟ وحريق الدنيا يوقدها الخلق وحريق الآخرة يوقدها الخالق، وحريق الدنيا لحظات وتنتهي، وحريق الآخرة آباد لا يعلمها إلا الله، ومع حريق الدنيا رضى الله عن المؤمنين وانتصار لذلك المعنى الإنساني ومع حريق الآخرة غضب الله والإرتكاس الهابط الذميم».

ثانيًا - ثبات امرأة فرعون

أما الصورة الثانية من صور الثبات على الإيمان أمام الطغاة فهي صورة لامرأة عاشت في عصر أكبر طاغية بل في بيت أكبر كافر بالله في بيت رجل قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ (النازعات: ٢٤)، وذكرتها ليعلم الجميع أن الإيمان متى استقر في القلب فإنه لا يفرق بين رجل أو امرأة، بين صغير أو كبير، وبين ضعيف أو قوي، وليعلم الجميع أن النساء محاضن الأبطال.

أخرج البخاري عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»، وحسبها من شرف ورفعة أن الله تعالى جعلها مثلاً يحتذى به، مثلاً في الإيمان.. في الثبات..

مثلاً في الزهد في الدنيا ومثلاً في رجاحة العقل، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (التحريم: ١١).

قال الحافظ ابن حجر: من فضائل آسية امرأة فرعون: اختارت القتل على الملك والعذاب في الدنيا على النعيم الذي كانت فيه، وقال ابن كثير: روى ابن جرير بسنده عن سليمان التيمي: كانت امرأة فرعون تعذب في الشمس فإذا انصرفت عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها وكانت ترى بيتها في الجنة.

وقال ابن جرير: كانت امرأة فرعون تسأل من غلب، فيقال: غلب موسى وهارون، فتقول: آمنت برب موسى وهارون، فأرسل فرعون إليها فقال: انظروا أعظم صخرة تجدونها فإن مضت على قولها فألقوها عليها، وإن رجعت عن قولها فهي امرأتي، فلما أتوها رفعت رأسها إلى السماء فأبصرت بيتها في الجنة فمضت على قولها وانتزعت روحها.

وقفة ثبات: وها هي ذا امرأة فرعون لم يصدها طوفان الكفر الذي تعيش فيه في قصر فرعون عن طلب النجاة وحدها وقد تبرأت من قصر فرعون طالبة من ربها بيتًا في الجنة، وتبرأت من صلتها بفرعون فسألت ربها النجاة منه، وتبرأت من عمله مخافة أن يلقها من عمله شيء وهي ألصق الناس به، وتبرأت من قوم فرعون وهي تعيش بينهم ﴿ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (التحريم: ١١)، ودعاء امرأة فرعون وموقفها مثل للاستعلاء على عرض الحياة الدنيا في أزهى صورة فقد كانت امرأة فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذ، في قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهي، ولكنها استعلت على هذا بالإيمان ولم تعرض عن هذا العرض فحسب بل اعتبرته شرًا ودنسًا وبلاءً، وتستعيذ بالله منه وتتفلت من

عقابيله وتطلب النجاة منه، وهي امرأة واحدة في مملكة عريضة قوية وهذا فضل آخر عظيم، فالمرأة وحدها أشد شعورًا وحساسية بوطأة المجتمع وتصوراته ولكن هذه المرأة وحدها وسط ضغط الملك وضغط حاشية المقام الملوكي، في وسط هذا كله رفعت رأسها إلى السماء وحدها في خضم هذا الكفر الطاغي، وهي نموذج عالٍ في التجرد لله من كل هذه المؤثرات وكل هذه الأواصر وكل هذه المعوقات وكل هذه الهواتف ومن ثَمَّ استحقت هذه الإشارة في كتاب الله الخالد والذي تتردد كلماته في جنبات الكون وهي تتنزل من الملأ الأعلى.. وإفراد امرأة فرعون بالذكر هنا مع مريم ابنة عمران يدل على المكانة العالية التي جعلتها قرينة مريم في الذكر بسبب ملابسات حياتها[1].

ثالثًا- ثبات ماشطة ابنة فرعون

وعلى طريق الإيمان وعلى طريق التضحية سار المؤمنون والمؤمنات بذلوا في سبيله المُهَج والأرواح، ومن بين هؤلاء امرأة ولكنها ضربت أروع الأمثلة في الثبات على المبدأ واليقين بما أعده الله لأوليائه، إنها باعت نفسها تُرى لمن وفي أي مكان؟!

إنها لم تبعها مثل كثير من نساء العصر في سوق النِّخاسة وفي سوق التبرج والسفور، فكم رأينا امرأة باعت عفتها من أجل الحصول على المال أو من أجل الوظيفة أو من أجل الشهادة، باعت دينها بعرض من الدنيا قليل.. ولكن بطلة تلك القصة ثبتت ولم تتزعزع ولم تتحرك عن إيمانها قيد أنملة، إنها ماشطة ابنة فرعون وما أدراك ما فرعون؟! قال: أنا ربكم الأعلى.

---

(١) «ظلال القرآن» (جـ١٦، ص: ٣٦٢١، ٣٦٢٢).

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما أسري بي مرت بي رائحة طيبة فقلت ما هذه الرائحة الطيبة؟، فقال: ماشطة ابنة فرعون وأولادها.. سقط مشطها من يدها فقالت: بسم الله، قالت: أو لك رب غير أبي؟، قالت: نعم ربي وربك الله، فأمر ببقرة من نحاس فأحميت ثم أمر بها أن تُلقى هي وأولادها فيها، قالت له: إن لي إليك حاجة، قال: وما حاجتك؟ قالت: أحب أن تجمع عظامي وعظام ولدي في ثوب واحد وتدفننا، قال: ذلك لك علينا من الحق، قال: فأمر بأولادها فألقوا بين يديها واحداً واحداً إلى أن انتهى ذلك إلى صبي لها مُرْضع وكأنها تقاعست من أجله قال: يا أمي اقتحمي فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة فاقتحمت**»(١).

وذهب فرعون وجنده لا يذكرون إلا بالكفر والطغيان، وبقي ذكرها وإيمانها نبراسًا يضيء الطريق للمؤمنين.

رابعًا- ثبات سحرة فرعون على الإيمان

ومن صور الثبات على الإيمان ثبات سحرة فرعون الذين استأجرهم فرعون لمواجهة موسى عليه السلام ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ (طه: ٦٠-٦١)، ولكن القوم تواطؤا على الكفر ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾ (طه: ٦٢).

ولابد من إشاعة التهم الباطلة ضد الحق وأنصاره لصرف الناس عنه وحشد جميع القوى للوقوف في وجه الحق وهذا دأب الجاهلية الحديثة... المواجهة.

ونلمح بعد ذلك المواجهة وقد حشد لها الناس ولعل ذلك من قدر الله سبحانه وتعالى لإقامة الحجة على الجميع كما حدث في حادثة أصحاب

---

(١) أخرجه أحمد والبزار وابن حبان والحاكم وإسناده حسن.

الأخدود: ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء: ٤٣-٥١)، ﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ (طه: ٧٢-٧٦).

إن موقف السحرة جدير بالوقوف عنده فمنذ لحظة كانوا مأجورين ينتظرون الجزاء من فرعون على مهارتهم، ولم يكونوا أصحاب عقيدة ولا قضية ولكن الحق الذي مس قلوبهم قد حولها تحويلاً، ولقد كانت هزة رجتهم رجًا ووصلت إلى أعماق نفوسهم وقرارة قلوبهم فأزالت عنها ركام الضلال وجعلتها صافية حية خاشعة للحق عامرة بالإيمان في لحظات قصار فإذا هم يجدون أنفسهم سجدًا ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾، إن القلب البشري لعجيب غاية العجب فإن لمسة واحدة تصادف مكانها لتبدله تبديلاً، وصدق ﷺ: «ما من قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه» (متفق عليه)، وهكذا انقلب السحرة المأجورون مؤمنين من خيار المؤمنين على مرأى ومسمع من الجماهير الحاشدة ومن فرعون وملإه، لا يفكرون فيما يعقب جهرهم بالإيمان في وجه الطاغية من عواقب ونتائج، أو كما يقول ابن كثير: والظاهر من هذه السياقات أن فرعون ـ لعنه الله ـ صلبهم وعذبهم ﷺ، قال عبد الله بن عباس

وعبيد بن عمير: كانوا من أول النهار سحرة فصاروا في آخره شهداء بررة، ويؤيد هذا قولهم: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٦).

وهنا نلمح الطغيان وقد وقف عاجزًا أمام الإيمان وأمام الاطمئنان، وقف عاجزًا أمام القلوب التي خيل إليه أنه يملك الولاية عليها كما يملك الولاية على الرقاب ويملك التصرف فيها كما يملك التصرف في الأجسام، فإذا هي مستعصية عليه لأنها من أمر الله لا يملك أمرها إلا الله.

إنه موقف من المواقف الحاسمة في تاريخ البشرية، هذا الذي كان بين فرعون وملإه والمؤمنين من السحرة السابقين يتمثل في انتصار العقيدة على الحياة وانتصار العزيمة على الألم وانتصار الإنسان على الشيطان، وفيه بدأ ميلاد الحرية الحقيقية فما الحرية إلا الاستعلاء بالعقيدة على جبروت المتجبرين وطغيان الطغاة والاستهانة بالقوة المادية التي تملك أن تتسلط على الأجسام والرقاب وتعجز عن استذلال القلوب والأرواح، وفيه يبدو أيضًا إفلاس المادية، فهذه القلة التي كانت منذ لحظة تسأل فرعون الأجر على الفوز وتمنى بالقرب من السلطان هذه ذاتها التي تستعلي على فرعون وتستهين بالتهديد والوعيد وتقبل صابرة محتسبة على التنكيل والتعذيب[1].

ويقول العلامة محمد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ: وقد ختم تعالى ما قصه هنا من كلام السحرة بهذا الدعاء فنذكره تالين داعين ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٦)، أي ربنا هب لنا صبرًا واسعًا تفيضه وتفرغه علينا إفراغًا وبتثبيتك إيانا على الإيمان وتأييدنا بروحك فيه، كما يفرغ الماء من القِرب حتى لا يبقى في قلوبنا شيئًا من خوف غيرك ولا من الرجاء فيما سوى فضلك ونوالك

(١) «أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، ذرية إبراهيم عليه السلام والمسجد الأقصى».

وتوفنا إليك حال كوننا مسلمين لك مذعنين لأمرك ونهيك مستسلمين لقضائك غير مفتونين بتهديد فرعون وغير مطيعين له في قول ولا فعل، جمعوا بدعائهم هذا بين كمال الإيمان والإسلام يدل على ما قررناه من المبالغة في طلب كمال الصبر وتنكيره والتعبير عن إيتائه بالإفراغ وهو صب الماء الكثير من الدلو ونحوه وأما تصويرنا لحصول ذلك بقوة الإيمان فمأخذه من العقل والتجارب أن الصبر من صفات النفس وهو عبارة عن قوة فيها على احتمال الآلام والمكاره بغير تبرم ولا حرج ولا شيء كالإيمان بالله والخوف منه والرجاء فيه يقوي هذه الصفة في النفس مأخذه من النقل آيات كقوله: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (العنكبوت: ٥٩).

وقوله فيهم: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر: ٣)، ولدينا من نقول التاريخ القديم والحديث ما يؤيد ذلك وقد صرح الذين كتبوا أخبار الحروب الأخيرة بعللها وفلسفتها أن المؤمنين بالله واليوم الآخر من جميع الملل أعظم شجاعة وأشد صبرًا على مشاق الحرب من غيرهم ولذلك يحرص أوسع الناس علمًا بسنن الخلق وأشدهم عناية بفنون الحرب كالشعب الألماني بالمحافظة على الدين في جيشهم[1].

خامسًا ـ ثبات أصحاب الكهف

يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَحْنُ

---

(١) «تفسير المنار» (جـ٩/ ٧٧) نقلاً عن «تيسير المنان في قصص القرآن».

نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ (الكهف: ٩-١٦).

يقول ابن إسحاق: طغى أهل الإنجيل وكثرت فيهم الخطايا حتى عبدوا الأصنام وذبحوا لها وبقى فيهم من هو على دين المسيح متمسكًا بدينه وبعبادته لله وحده، وكان بالروم ملك يقال له «دقيانوس» عبد الأصنام وذبح للطواغيت وكان يحمل الناس على ذلك ويقتل من خالفه، فمر بمدينة أصحاب الكهف وهي من الروم يقال لها «أفسوس»، ولما مر دقيانوس بالمدينة اختفى منه أهل الإيمان فكان يبعث أعوانه ليحضروهم فيخيرهم بين الشرك والقتل إلى أن استدعى الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم هدى وطلب منهم أن يشركوا وأن يذبحوا للطواغيت فامتنعوا فهددهم بالقتل فربط الله على قلوبهم وثبتهم على التوحيد، ثم بدا له فأمهلهم ليراجعوا أنفسهم في مصيرهم.. ثم إن الإمبراطور رحل إلى مدينة أخرى لبعض شأنه ثم عاد ليطلبهم فلم يجدهم فقد فروا بدينهم من فتنة الشرك واعتزلوا المشركين، وأووا إلى كهفهم ومعهم بعض النقود وبعض الطعام ومعهم رقيمهم «كتابهم المرقوم الذي فيه معتقدهم» وتذكر كتب التفاسير أنهم دخلوا الكهف ومعهم كلب لهم فلما طلبهم الإمبراطور دعوا الله ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾، وناموا فكانت النومة التاريخية التي صارت مضرب المثل ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾، وكان باب كهفهم إلى جهة الشمال وذلك من رحمة الله تعالى بهم حتى لا يؤذيهم شروق الشمس ولا غروبها، وقلَّبهم الله على جنوبهم ذات اليمين وذات الشمال لئلا تبلى أجسامهم

﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ ، وفي ذات الوقت تأكيدًا لحياتهم، ثم بعث الله الفتية ليتساءلوا بينهم كم لبثوا؟ وفي حيرة من أمرهم قالوا: ﴿ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ ، وفي تسليم لله قالوا: ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ ، وحذروه ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ ، وخرج المتلطف الحذر فرأى كل شيء وقد تغير ودفع ما معه من النقود إلى رجل يبيع الطعام فتعجب التاجر لأن هذه العملة كانت على عهد دقيانوس وقد هلك هذا الطاغية المشرك وبقيت تحمل اسمه، وشاع الخبر في المدينة وحولها واجتمع الناس من هنا وهناك ليروا هذه الآية ﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾ ، وهكذا تظهر حكمة الله التي خفيت، وينكشف سر الغيب الذي ادخره الله ليظهر في حينه، لقد بعث أهل الكهف ليعلم الناس أنَّ وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها وكانوا من قبل بين منكر ومصدق فجاء العثور على أهل الكهف حجة قاطعة وبرهانًا ساطعًا على البعث والحياة الآخرة.

وقفة ثبات:

١ ـ الفرار بالدين سنة من سنن الأنبياء والرسل وأتباعهم: يقول الشيخ سعيد عبد العظيم: وهي صريحة في الفرار بالدين وهجرة الأهل والبنين والقرابات والأصدقاء والأوطان والأموال خوف الفتنة وما يلقاه الإنسان من المحنة حتى وإن اضطر الإنسان إلى سكن الجبال ودخول الغيران والعزلة عن الخلق انفرادًا بالخالق من الظالم فهذه سنة الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ والأولياء، وقد فضل رسول الله ﷺ العزلة وفضلها جماعة العلماء لاسيما عند ظهور الفتن

وفساد الناس وقد نص الله تعالى في كتابه فقال: ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾، والاعتزال عن الناس قد يكون في الجبال والشعاب أو السواحل والرباط أو في البيوت، وقد جعلت طائفة من العلماء العزلة اعتزال الشر وأهله بقلبك وعملك إن كنت بين أظهرهم.

وقال ابن المبارك في تفسير العزلة: أن تكون مع القوم، فإذا خاضوا في ذكر الله فكن معهم، وإن خاضوا في غير ذلك فاسكت[١].

وروى البغوي: عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم».

وقال عقبة بن عامر لرسول الله ﷺ: ما النجاة يا رسول الله؟، فقال: «يا عقبة أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك»[٢].

وقال رسول الله ﷺ: «يأتي على الناس زمان خير مال الرجل المسلم الغنم يتبع بها شغف الجبال ومواقع القطر (المطر) يفر بدينه من الفتن» (رواه البخاري).

وذكر علي بن سعد عن عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال: «يأتي على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه إلا من فر بدينه من شاهق إلى شاهق أو حجر إلى حجر فإذا كان ذلك لم تنل المعيشة إلا بمعصية الله، فإذا كان ذلك حلت العزبة»، قالوا: يا رسول الله كيف تحل العزبة وأنت تأمر بالتزوج؟، قال: «إذا كان ذلك كان فساد الرجل على يدي أبويه، فإن لم يكن له أبوان كان هلاكه على يدي زوجته، فإن لم تكن له زوجه كان هلاكه على

(١) والأولى المجانبة والمفارقة لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ (سورة النساء: ١٤٠).
(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

يدي ولده، فإن لم يكن له ولد كان هلاكه على يدي القرابات والجيران» قالوا: وكيف يا رسول الله؟، قال: «يعيرونه بضيق المعيشة ويكلفونه ما لا يطيق فعند ذلك يورد نفسه المورد التي يهلك فيها»[1].

٢ ـ الاعتصام بالله واللجوء إليه: فهؤلاء الفتية لما أصابهم ما أصابهم توجهوا إلى الله تعالى وطلبوا منه سبحانه أن يوفقهم إلى الرشاد فقالوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

فالدعاء هو العبادة وهو أيضًا سلاح المسلم عند الشدائد والمكائد، لجأ إليه الأنبياء والمرسلون عند الشدائد، وأمرنا سبحانه به حيث قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر: ٦٠)، ويقول سبحانه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ (النمل: ٦٢)، فهؤلاء الفتية كانوا فقهاء علماء إذ لم يطلبوا من غير الله معونة ولا سند.

٣ ـ أنهم كانوا فتية آمنوا بربهم وزادهم الله هدى: يقول الشيخ سعيد عبد العظيم: ما أشبه أصحاب الكهف بهؤلاء الفتية الذين صاحبوا رسول الله ﷺ كابن عمر وابن عباس وأسامة بن زيد ورافع بن خديج ومعاذ بن جبل وسمرة بن جندب وغيرهم كثير فهم على حداثة سنهم ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا رجالاً ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب: ٢٣)، وكلهم حرص على الخير والبذل والفداء واجتناب المحارم واستعمال المكارم وهذه هي الفتوة الحقيقة ورأسها الإيمان بالله تعالى، والناظر في قصة أصحاب الكهف سيجد أنهم كانوا شبابًا وأحداثًا ولم يمنعهم ذلك من الإيمان والثبات على الحق إذ هذه المعاني لا تقتصر على الكبار دون

---

(١) رواه البخاري في كتاب «الإيمان» (رقم: ١٨) بلفظ: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شغاف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن».

الصغار ولا على الرجال دون النساء، ولذلك ذكر ربنا جلَّ وعلا أصحاب الكهف في معرض الثناء والمدح فقال: ﴿**إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى**﴾ ، فما قيمة السن الكبير إن لم يكن زادًا لصاحبه بل كان وبالاً عليه، وما قيمة عمر طويل مع الانحراف عن منهج الله إن السبق سبق الفضل، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه، ويؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإذا كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة، فإذا كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء فأكبرهم سنًا، وكان عمرو بن سلمة يؤم القوم وعمره سبع سنوات لكونه كان قارئًا، ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله «**شاب نشأ في طاعة الله**» ، فالكل يجب عليه أن يسلم وجهه لله ويجب علينا رعاية الأبناء وإعانتهم على طاعة الله والحذر كل الحذر من إضاعتهم ففي ذلك خيانة للأمانة وإضاعة للأمة.

•

إن الفارق الكبير بين أصحاب الكهف الذين عناهم سبحانه وتعالى بقوله: ﴿**إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى**﴾ ، وبين كثير من شباب اليوم.

شباب قنع لا خير فيه وبورك في الشباب الطامحين

عيب كبير أن يربى شباب الأمة على الرقص والغناء والموسيقى وتعلم فنون الضياع ومتابعة الأدب الرخيص الذي يطلق عليه اسم الأدب المكشوف ـ أدب الجنس ـ وحفظ النظريات والمذاهب الهدامة ـ عن ظهر قلب ـ دون رصيد من معرفة الحق وتقليد من لا خير فيه ولا طريقته من الزعماء والساسة والفنانين والمغنيين[1] اهـ.

٤ ـ الثبات على الحق والمبدأ وإن كلفهم ذلك أرواحهم.

---

(١) «قصة أصحاب الكهف» (ص: ٣٨-٤١).

سادسًا ـ ثبات صاحب ياسين

يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ (يس: ١٣-٢٧).

هذه قرية من القرى قيل هي قرية إنطاكية عاصمة بلاد يقال لها العواصم بأرض الروم، أرسل إليها عيسى عليه السلام رسولين فكذبوهما فأرسل إليه ثالث قيل هو شمعون الصفي رأس الحواريين تعزيزًا لموقفهم يدعون أهل تلك القرية إلى الإيمان بالله تعالى وترك عبادة الأصنام، ولكن أهل هذه القرية صدوا عن سبيل الله وتطيروا من هؤلاء المرسلين، فسمع بخبرهم رجل بسيط يقال أن اسمه حبيب النجار، فجاء من أقصى المدينة يسعى قد آمن بدعوة عيسى عليه السلام وحمل هم الدعوة على كتفيه. . .

فهذا رجل سمع الدعوة واستجاب لها بعدما رأى فيها من دلائل الحق والمنطق ما يتحدث عنه في مقالته لقومه: وحينما استشعر قلبه حقيقة الإيمان تحركت هذه الحقيقة في ضميره فلم يطق عليها سكوتًا ولم يقبع في داره بعقيدته

وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور ولكنه سعى بالحق الذي استقر في ضميره وتحرك في شعوره، سعى به إلى قومه وهم يكذبون ويتوعدون ويهددون وجاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق وفي كفهم عن البغي وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشكون أن يصبوه على المرسلين، وظاهر أن الرجل لم يكن ذا جاه ولا سلطان ولم يكن في عزوة من قومه أو منعةٍ من عشيرته ولكنها العقيدة الحية في ضميره تدفعه وتجيء به من أقصى المدينة إلى أقصاها وهو لا يطلب أجرًا ولا يبتغي مغنمًا، إنه لصادق وإلا فما يحمله على هذا العناء إن لم يكن يلبي تكليفًا من الله؟، ما الذي يدفعه إلى حمل هم الدعوة ومجابهة الناس بغير ما ألفوه من العقيدة والتعرض لأذاهم وشرهم واستهزائهم وتنكيلهم وهو لا يجني من ذلك كسبًا ولا يطلب منهم أجرًا، إنه حرص الداعي على الناس ورغبته في إنقاذهم من العذاب، وحبه للناس ما يحبه لنفسه .. يا له من حرص ما رأينا مثله إلا في دعوة الله، وتأمل حال الداعي بعد ما قتلوه ينقل لنا القرآن مشاعره ليس فيها حب للانتقام ولا الحقد ولا الضغينة ونرى القرآن يبين لنا حال هذا الرجل المؤمن الداعي إلى ربه وقد اطلع على ما آتاه الله في الجنة من المغفرة والكرامة، يذكر قومه طيب القلب راضي النفس ويتمنى لو يراه قومه ويرون ما آتاه ربه من الرضى والكرامة ليعرفوا الحق معرفة اليقين.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نصح قومه في حياته ونصحهم بعد مماته، وقال أبو السعود: إنما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب الثواب والأجر والتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان جريًا على سنن الأولياء في الترحم على الأعداء.

الفصل الثالث

ثبات الصحابة رضي الله عنهم

أصحاب النبي ﷺ هم الذين باعوا أنفسهم وأموالهم وأهليهم لله عزَّ وجلَّ، هم الذين تركوا الأوطان من أجل رضى الرحمن، هم الذين قاتلوا الأهل والآباء والأبناء من أجل رضى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، هم الذين ثبتوا على الإيمان رغم طغيان أهل الكفر والعصيان، هم الذين صبروا وصابروا ورابطوا، أثنى عليهم المولى سبحانه بقوله: ﴿ **وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ (التوبة: ١٠٠).

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ فقد أخبر الله العظيم أنه رضى عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فيا ويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض بعضهم أو سب بعضهم.

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴾ (الفتح: ١٨-١٩)، وفي صحيح مسلم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يدخل النار أحدٌ ممن بايع تحت الشجرة».**

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ (الفتح: ٢٩).

وأخرج البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: **«يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال: فيكم من صاحب رسول الله ﷺ؟ فيقولون لهم: نعم، فيفتح لهم، ثم يأتي على الناس زمان فيغزوا فئام من الناس فيقال فيكم من صاحب أصحاب رسول الله ﷺ؟، فيقولون: نعم، فيفتح لهم، ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال لهم: فيكم من صاحب من صاحب من أصحاب رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم»**.

ومن فضائلهم أيضًا ما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء فسبه خالد فقال رسول الله ﷺ: **«لا تسبوا أحداً من أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»**.

وأخرج البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»**، قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة ثم قال: **«ثم إن بعدكم قومًا يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السمن»**، والمراد بالسمن التوسع في المآكل والمشارب.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إن الله عزَّ وجلَّ نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه وابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه ﷺ، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: كان أصحاب رسول الله ﷺ خير هذه الأمة قلوبًا وأعمقها علمًا وأقلها تكلفًا، قوم اختارهم الله عزَّ وجلَّ لصحبة نبيه ونقل دينه، ويقول ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: واعلم أن فضائل الصحابة على جميع صحابة الأنبياء ظاهرة وكان لسبقهم سببان:

أحدهما - خلوص البواطن من الشك بقوة اليقين، وإلى هذا أشار رسول الله ﷺ : «**ما سبقكم أبو بكر بكثير صوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر في صدره**»[١] .

والثاني - بذل النفوس للمجاهدة والاجتهاد، وقد علم ما جرى لموسى عليه السلام مع الصحابة وعلم صبر صحابتنا، ولما استشار رسول الله ﷺ الناس يوم بدر قال المقداد: والله لو ضربت بطونها حتى تبلغ برك الغماد لتابعناك ولا نقول كما قال قوم موسى: ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا ﴾ (المائدة: ٢٤).

وكان أبو طلحة يوم أُحد يقول لرسول الله ﷺ : نحري دون نحرك، وقُتل يومئذ زوج امرأة وأبوها وابنها وأخوها فقالت: يا رسول الله لا أُبالي إذا سلمت من عطب[٢] اهـ.

فهيا - أخي المسلم - إلى ساحة ثبات الصحابة رضي الله عنهم أمام أهل الكفر والعصيان وكيف أنهم هانت عليهم أنفسهم في سبيل الله واستعذبوا العذاب في الثبات على الإيمان فضربوا بذلك أروع الأمثلة على مر التاريخ فهيا أخي المسلم لنتشبه بهم.

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إن التشبه بالكرام فلاح

ثبات أبي بكر الصديق رضي الله عنه

عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ ، وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً ألحَّ أبو بكر على رسول الله ﷺ في الظهور فقال: يا أبا بكر إنا قليل، فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ وتفرق المسلمون في

---

(١) حديث صحيح: راجع «رفع الحرج والضيق» للدكتور/ علي الصلابي.
(٢) «التبصرة» (ص: ٣٨٦).

نواحي المسجد كل رجل في عشيرته وقام أبو بكر في الناس خطيبًا ورسول الله ﷺ شاهد وثار المشركون على أبي بكر وضرب ضربًا شديدًا ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه ونزا على بطن أبي بكر حتى ما يُعرف وجهه من أنفه وجاء بنوتيم يتعادون فأجلب المشركين عن أبي بكر وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكون في موته ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة، فرجعوا إلى أبي بكر فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب فتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير: انظري أن تطعميه شيئًا أو تسقيه إياه، فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت: والله ما لي علم بصاحبك، فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله؟، فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك، قالت: نعم، فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعًا دنفًا فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت: والله إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم، قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: هذه أمك تسمع قال: فلا شيء عليك منها قالت: سالم صالح قال: أين هو؟ قالت: في دار ابن الأرقم، قال: فإن الله على أن لا أذوق طعامًا ولا أشرب شرابًا إلا إذا آتي رسول الله ﷺ، فأمهلتا حتى هدأت الرِّجل وسكن الناس خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ، قال: فأكب عليه رسول الله ﷺ فقبله وأكب عليه المسلمون ورق له رسول الله ﷺ رقة شديدة فقال أبو بكر: بأبي وأمي يا رسول الله، ليس بي بأس إلا ما

نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي بارَّة بولدها وأنت مبارك فادعها إلى الله وادع الله لها عسى الله أن يستنفذها بك من النار، قال: فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله فأسلمت، وأقاموا مع رسول الله ﷺ في الدار شهرًا وهم تسعة وثلاثون رجلاً[1].

هكذا كان أبو بكر رضي الله عنه فهو أول من بكّر بالإسلام وهو ثاني اثنين إذ هما في الغار كان لا يهاب الموت ولا يخشى الردى رضي الله عنه.

ماض واعرف ما دربي وما هدفي	والموت يرقص لي في كل منعطف
وما أبالي به حتى أحاذره	فالموت عندي أضحى بارد الطرف

* ***ومن ثباته رضي الله عنه: ثباته عند موت النبي ﷺ:***

يقول أبو الحسن الندوي: موقف أبي بكر الحاسم وكان أبو بكر رضي الله عنه وهو الذي هيأه الله لخلافة النبوة والوقوف موقف العزيمة والحكمة، رجل الساعة المطلوب والجبل الراسي الذي لا يحول ولا يزول، فأقبل من منزله حين بلغه الخبر نزل على باب المسجد وعمر يكلم الناس فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله ﷺ في بيت عائشة وهو مسجًّى فكشف عن وجهه ثم أقبل عليه فقبله ثم قال: لن تصيبك بعدها موتة أبدًا ورد البُرْد على وجهه ﷺ ثم خرج وعمر يكلم الناس فقال: على رسلك يا عمر وأنصت فأبى إلا أن يتكلم فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس، فلما سمعوا كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت، ثم تلا هذه

(١) «البداية والنهاية» (جـ٣، ص: ٣٧-٣٨).

الآية: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٤).

يقول من شَهِدَ هذا الموقف: والله كأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ وأخذها الناس عن أبي بكر فإنما هي في أفواههم، ويقول عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت - تحيرت ودهشتُ - حتى وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات. اهـ.

وهكذا سلم المسلمون الأمر لله من قبل ومن بعد، وما ذلك إلا لثبات الصديق رضي الله عنه على إيمانه.

* **الصورة الثانية لثبات أبي بكر رضي الله عنه:**

أخرج الإسماعيلي عن عمر رضي الله عنه قال: لما قبض رسول الله ﷺ ارتد من ارتد من العرب وقالوا: نصلي ولا نزكي فأتيت أبا بكر فقلت: يا خليفة رسول الله تألف الناس وارفق بهم فإنهم بمنزلة الوحش، فقال: رجوت نُصرتك وجئتني بخذلانك جبارًا في الجاهلية خورًا في الإسلام؟ بماذا عسيت أن أتألفهم بشعر مفتعل أو بسحر مفترى؟ هيهات هيهات! مضى النبي ﷺ وانقطع الوحي والله لأجاهدنهم ما استمسك السيف في يدي وإن منعوني عِقالا، قال عمر: فوجدته في ذلك أمضى مني وأحزم وأدب الناس على أمور هانت على كثير من مؤنتهم حين وليتهم[1].

قال الذهبي: لما اشتهرت وفاة النبي ﷺ بالنواحي ارتدت طوائف كثيرة من العرب عن الإسلام ومنعوا الزكاة فنهض أبو بكر الصديق لقتالهم، فأشار

(١) «تاريخ الخلفاء» (ص: ٨٣، ٨٤).

عليه عمر وغيره أن يفتر عن قتالهم فقال: والله لو منعوني عِقالاً أو عناقًا، كانوا يؤدونها إلى النبي ﷺ لقاتلتهم على منعها، فقال عمر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فمن قالها عصم ماله ودمه إلا بحقها وحسابه على الله» (متفق عليه).

فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال وقد قال: «إلا بحقها» قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق. (أخرجه الشيخان وغيرهما)[1].

حاله رضي الله عنه:

لله درك والردى متكالب	**والمشرفية تستحق الأبطال**
ووقفت تخطب والرؤوس تطايرت	**وأسقيت سيف العز حتى سالا**

* الصورة الثالثة لثبات أبي بكر رضي الله عنه:

أخرج ابن عساكر عن أبي هريرة قال: والذي لا إله إلا هو لولا أن أبا بكر استخلف ما عُبد الله ثم قال الثانية ثم قال الثالثة، فقيل له: مه يا أبا هريرة، فقال: إن رسول الله ﷺ وجه أسامة بن زيد في سبعمائة إلى الشام فلما نزل بذي خشب قبض النبي ﷺ وارتدت العرب حول المدينة واجتمع إليه أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: رُدَّ هؤلاء، تُوَجِّه هؤلاء إلى الروم وقد ارتدت العرب حول المدينة؟ فقال: والذي لا إله إلا هو لو جرت الكلاب بأرجل أزواج النبي ﷺ ما رددت جيشًا وجهه رسول الله ﷺ ولا حللت لواء عقده، فوجه أسامة فجعل لا يمر بقبيلة يريدون الارتداد إلا قالوا: لولا أن بهؤلاء قوة ما خرج

(١) «تاريخ الخلفاء» (ص: ٨٣، ٨٤).

مثل هؤلاء من عندهم، ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم، فلقوهم فهزموهم وقتلوهم ورجعوا سالمين فثبتوا على الإسلام[١].

فأين الأمة الإسلامية من أبي بكر ومن ثباته على إيمانه في وجه أهل الطغيان؟! ما أصاب المسلمين من تمزق وهوان إلا بسبب ضعف إيمانهم ورهبتهم من أعدائهم... فالجهاد الجهاد أمة الإسلامة هو سبيل العزة والتمكين.

السيف أصدق أنباء من الكتب	فمن يجدد هذا القول للعرب
ومن ينبئهم أن البطولة في إجادة	الطعن لا في جودة الخطب
وأن آباءهم سادوا الورى قممًا	بالجد والكسب لا باللهو واللعب
وأن شمس هداهم منذ أن طلعت	على الخلائق والأكوان لم تغب

ثبات أسماء بنت أبي بكر وابنها عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما

روى الإمام الطبري عن مخرمة بن سليمان الوالي قال: دخل ابن الزبير رضي الله عنهما على أمه حين رأى من الناس ما رأى من خذلانه فقال: خذلني الناس حتى ولدي وأهلي فلم يبق معي إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا فما رأيك؟ فقالت: أنت والله يا بني أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على الحق وإليه تدعو فامض له، فقد قتل عليه أصحابك - حتى قالت له تنصحه وتقوية -: وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت من قتل معك، وإن كنت على حق فلما وهن أصحابك ضعفت فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين، وكم خلودك في الدنيا القتل أحسن.

---

(١) «تاريخ الخلفاء» (ص: ٨٥-٨٦).

فدنا ابن الزبير فقبل رأسها وقال: هذا والله رأي والذي قمت به داعيًا إلى يومي هذا ما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرماته، ولكني أحببت أن أعلم رأيك فزدتني بصيرة مع بصيرتي فانظري يا أمه فإني مقتول من يومي هذا فلا يشتد حزنك وسلمي الأمر لله فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر ولا عملاً بفاحشة ولم يجر في حكم الله، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت بل أنكرته، ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربي، اللهم إني لا أقول هذا تزكية مني لنفسي أنت أعلم بي ولكن أقوله تعزية لأمي لتسلو عني.

فقالت أمه: إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسنًا إن تقدمتني وإن تقدمت ففي نفسي أخرج حتى أنظر إلى ما يصير أمرك، قال: جزاك الله يا أمه خيرًا فلا تدعي الدعاء لي قبل وبعد، فقالت: لا أدعه أبدًا فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق، ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة وبره بأبيه وبي، اللهم قد سلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت فأثبني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين.

وعن عروة قال: لما كانت الغداة التي قتل فيها ابن الزبير دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر يومئذ ابنة مائة سنة لم يسقط لها سن فقالت: يا عبد الله ما بلغت في حربك؟ قال: بلغوا مكان كذا وكذا وضحك وقال: إن الموت لراحة فقالت أسماء: يا بني لعلك تتمناه لي، ما أحب أن أموت حتى آتي على أحد طرفيك إما أن تملك فتقر بذلك عيني، وإما أن تقتل فأحتسبك ثم ودعها فقالت لي: يا بني إياك أن تعطي خصلة من دينك مخافة القتل، وخرج عنها وأنشأ يقول:

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ... ولكن على أقدامنا تقطر الدما

وعن عروة قال: أتيت عبد الله بن الزبير حين دنا الحجاج منه فقلت: قد لحق فلان بالحجاج ولحق فلان بالحجاج فقال:

فرت سلامان وفرت النمر　　　وقد نلاقي معهم فلا نفر

فقلت له: لقد أخذت دار فلان فقال:

اصبر عصام إنه شر باق　　　وقد نلاقي معهم فلا نفر

وقامت الحرب بنا على ساق

قال: فعرفت أنه لا يُسلم نفسه قال: فغاظني، فقلت: إنهم والله إن يأخذوك يقطعونك إربًا إربًا فقال:

ولست أبالي حين أقتل مسلما　　　على أي جنب كان لله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ　　　يبارك على أوصال شلو ممزع

قال الواقدي عن أشياخ له قالوا: حصر ابن الزبير ليلة هلال ذي القعدة سنة ثنتين وسبعين وستة أشهر وسبع عشرة ليلة ونصب الحجاج المنجنيق يرمي به أحث الرمى وألح عليهم بالقتال من كل وجه وحبس عنهم الميرة وحصرهم أشد الحصار فقامت أسماء يومًا فصلت ودعت فقالت: «اللهم لا تخيِّب عبد الله بن الزبير، اللهم ارحم ذلك السجود والنحيب والظمأ في تلك الهواجر، وقتل يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من جمادي الأولى سنة ثلاث وسبعين وهو ابن اثنين وسبعين سنة.



ثبات عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه

ذكر أهل السير كالذهبي وابن حجر وغيرهما، أن عمر رضي الله عنه وجه في السنة التاسعة عشرة للهجرة جيشًا لحرب الروم وفتح بلادهم للإسلام، وقد علم قيصر الروم عن أخبار جند المسلمين وما يحلون به من صدق إيمان ورسوخ عقيدة واسترخاص للنفوس في سبيل الله وصبر وبذل للمهج والأرواح في سبيل الله ما أذهله وما أدهشه فأمر رجاله أن إذا ظفروا بأسير من المسلمين أن يبقوا عليه حيًا ويأتوه به... وشاء الله جلَّ جلاله أن يقع في الأسر عدد من المسلمين من بينهم صحابي جليل قد أدرك معنى العبودية لله - عزَّ وجلَّ - فتخلص من رق المخلوقين فلا تراه إلا وهو يصوم النهار ويتلو القرآن ويقوم في جنح الليل ويستغفر بالأسحار فقليلاً ما يهجع.. راقبوه فرأوا من تُقَاه وصلاحه وصلابته ورجولته وعقله ورزانته ما أدهشهم ورأوا إن كسبوه لدينهم أنهم حققوا نصرًا عظيمًا وكسبًا عظيمًا ذكروه لقيصرهم فقال: ائتوني به، فجاءوا به فكان الخُبر أعظم الخبر وجاوزت المعاينة الخبر وما راء كمن سمع، نظر إليه قيصرهم فرأى عزة واستعلاء المؤمن ونجابة الأبطال فبادره قائلاً: إني أعرض عليك أمرًا؟

قال: وما هو؟، قال: أن تَتَنَصَّر فإن فعلت خليت سبيلك وأكرمت مثواك، فقال الأسير - عبد الله بن حذافة - في أَنَفة وحزم: هيهات إن الموت لأحب إلي ألف مرة مما تدعوني إليه، هيهات أنَّى لقلوب خالطتها بشاشة الإيمان أن تعود إلى ظلمات الكفر والضلال مهما كانت الإغراءات، أنَّى لقلوب عرفت النور بحق أن تتدثر بالظلام مرة أخرى مهما كانت الإغراءات والمغريات..!!

فقال: لو تنصرت شاطرتك ملكي وقاسمتك سلطاني، يريد أن يبيع دينه بعرض من الدنيا، يريد أن يصرف عنه عبودية الله إلى رق المركز الذي طالما سال

له لعاب كثير من الناس فيضيعون حقوق الله في سبيل نيله، باعوا دينهم بعرض من الدنيا وهربوا من الرق الذي خلقوا له فَبُلوا برقٍّ النفس والشيطان.

فقال عبد الله بن حذافة ﷺ: والله الذي لا إله إلا هو لو أعطيتني جميع ما تملك وما تملكه العرب والعجم على أن أرجع عن دين محمد طرفة عين ما قبلت.

وبعد مداولة استقر الرأي على أن الشهوة طريق مجرب ناجح صيب به الكثير عن دينه ومبادئه وثوابته، فلكَمْ رأوا ولكَمْ رأينا ولكَمْ يرى من أناس يعبدون الشهوة ينفقون أموالهم في الشهوة المحرمة ولبئس السفر والركض يبيعون دينهم في سبيل الشهوة المحرمة وخسر البيع، والنار حفت بالشهوات وهم يتهافتون إليها وساء التهافت، عباد شهوة وبئس العبيد.

قال قيصرهم: ائتوني بأجمل فتاة في بلادي، فجيء بملكة جمال البلاد - كما يقولون - وأغراها بالأموال العظيمة إن استطاعت أن توقعه في الفاحشة، لأن الفاحشة طريق إلى ترك دينه، ولك أن تتصور أخي الحبيب لك أن تتصور ما حال هذا الرجل؛ شاب في كامل فتوته ورجولته وشبابه وقوته وفوق ذلك غائب عن أهله منذ شهور وهذا عامل يجعلهم يتفاءلون، أدخلوها عليه فتجردت من ملابسها بعد تجردها من الحياء المترتب على تجردها من الإيمان - ولا ذنب بعد كفر - قامت تعرض نفسها أمامه ثم ترتمي في أحضانه فيهرب منها قائلاً: معاذ الله فتطارده ويتجنبها ويغمض عينه خشية أن يفتن بها ويقرأ القرآن، ويستعذ بالرحمن ولسان حاله ومقاله «رب القتل أحب إليَّ مما تدعوني إليه وإلا تصرف عني كيدها أصبو إليها وأكن من الجاهلين» تتابعه من جهة إلى أخرى وهو يستعيذ بالله الذي ما امتلأ قلبه إلا بعبوديته حتى يئست منه... نقلة الأخبار على الباب من شياطين الإنس ينتظرون خبر فتنته ووقوعه في الفاحشة لينقلوا إلى الآفاق شماتة بالإسلام وأهله

وإعلانًا لانتصارهم في صرفه عن دينه ولعل غيره يتبعه في ذلك ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ (البقرة:٢١٧)، وإذا بها تصيح: أخرجوني، فأخرجوها قد تغير لونها، فشلت في مهمتها، كرتها خاسرة عاهرة فاجرة، سألها من عند الباب: ما الذي حدث؟! هات البشرى، يريدون أن يطيروا بالخبر، قالت: والله ما يدري أأنثى أنا أم ذكر ووالله ما أدري أدخلتموني على حجر أم بشر؟ هنا قال قيصرهم: إذًا أقتلك، انتقل الأمر إلى التهديد وأنَّى لمؤمن امتلأ قلبه بعبودية الله أن يخشى تهديدًا دون نار جهنم، إنه هارب من النار وما هناك تهديد بما هو أعظم من النار، فكل تهديد دونها ولاشك.

قال ﷺ: أنت وما تريد، افعل ما بدى لك، فأمر بصلبه ثم أمر برميه بالسهام قرب يديه فيطلب منهم قيصرهم أن ينزلوه عن خشبة الصلب لينوع التهديد عليه عله أن يلين، فيدعو بقدر عظيم فيصب فيها الزيت ويوقد تحتها النار حتى أصبح الزيت يغلي ثم يأتي بأسيرين من أسرى المسلمين فيلقيهما في القدر أمام عينيه فإذا بلحمهما يتفتت وعظامهما تبدو عارية، منظر فظيع بشع وحشي ظنوا أنهم به وصلوا إلى قلب هذا الصحابي وإلى بغيتهم منه، التفت القيصر إلى الصحابي وعرض عليه النصرانية فكان أشد إباء من ذي قبل، فلما يئس منه أُمِرَ به أن يلقى في القدر مع صاحبيه، فلما ذهب به دمعت عيناه فظنوا أنه قد جزع وسيرتد عن دينه فعرضوا عليه النصرانية مرة أخرى فأبى، قال: ويحك ما أبكاك؟، قال: أبكاني أن قُلت في نفسي: إنما هي نفس واحدة تلقى الآن في هذا القدر فتذهب في هذا القدر في سبيل الله، لا إله إلا الله والله أكبر، ويا لها من قلوب امتلأت بخشية الله وعبودية الله فلم يترك فيها فراغ لوعد أو وعيد دون الجنة أو الجحيم.

عندها ردوه إلى الأسر ووضعوا معه خمرًا ولحم خنزير ومنعوا عنه الطعام والشراب، وبقي ثلاثة أيام يراقَب علَّه أن يأكل لحم خنزير أو يشرب من الخمر فلم يفعل، وانثنت عنقه رضي الله عنه، مالت عنقه من شدة الجوع والعطش وأشرف على الهلاك فأخرجوه فقالوا له: ما منعك أن تأكل أو تشرب؟ قال: أما إن الضرورة قد أحلت لي ذلك ولكن والذي لا إله إلا هو لقد كرهت أن يشمت أمثالكم بالإسلام وأهله.

فقال له القيصر معجبًا بثباته ورشده وقوة عقله ولبه: هل لك أن تقبل رأسي فأخلي عنك؟ قال: وعن جميع أسرى المسلمين ـ وكانوا لا يعيشون لأنفسهم ـ قال: وعن جميع أسرى المسلمين؟ فقال يسائل نفسه: عدو من أعداء الله أقبل رأسه ليخلي عن أسرى المسلمين لئلا يقتلوا لا ضير في ذلك فقبله فأطلق له الأسرى وأجازه بثلاثين ألف دينار وثلاثين وصيفًا وثلاثين وصيفة.

وقدم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأسرى المسلمين ثابتًا كالطود الشامخ يطأ بأخمصه الثرى وهامة تواجه الثرية، وأخبر عمر الخبر فسر أعظم السرور ثم قام فقبل رأسه وقال: حَقٌّ على كل مسلم أن يقبل رأسك.

ثبات بلال بن رباح رضي الله عنه

أخرج الإمام أحمد وابن ماجه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب الرومي، وبلال، والمقداد رضي الله عنهم، فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه الله بعمه، أما أبو بكر منعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم درع الحديد وصهروهم في الشمس فما منهم من أحد إلا وقد آتاهم على ما أرادوا

إلا بلال فإنه هانت عليه نفسه في الله وهان على قومه فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول: أحدٌ أحد.

وذكر أبو نعيم في (الحلية) عن ابن إسحاق: كان أُبي يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزّى وهو يقول في ذلك البلاء: أحدٌ أحد، قال عمار بن ياسر - وهو يذكر بلالاً وأصحابه وما كانوا فيه وإعتاق أبي بكر إياه وكان اسم أبي بكر عتيقًا ﵁:

جزى الله خيراً عن بلال وصحبه	عتيقًا وأخزى فاكها وأبا جهل
عشيه هما في بلال بسوءة	ولم يحذر ما يحذر المرء ذو العقل
بتوحيده رب الأنام وقوله	شهدت بأن الله ربي على مهل
فإن يقتلوني فلم أكن	لأشرك بالرحمن من خيفة القتل
فيا رب إبراهيم والعبد يونس	وموسى وعيسى نجني ثم لا تبل
لمن ظل يهوى الغنى من آل غالب	على غير بركان منه ولا عدل[١]

وعن قيس: اشترى أبو بكر بلالاً وهو مدفون في الحجارة بخمس أواق ذهبًا فقالوا: لو أبيت إلا أوقية لبعناكه، قال: لو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته[٢].

وعن جابر بن عبد الله قال: كان عمر يقول: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا يعني بلال، وفي رواية: أبو بكر سيدنا أعتق بلالاً سيدنا[٣].

---

(١)، (٢) «حلية الأولياء» (جـ١، ص:١٤٨).
(٣) أخرجه البخاري وابن سعد.

ثبات عمار بن ياسر وأهل بيته رضي الله عنهم عند الشدائد

عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بعمار وأهله وهم يعذبون، فقال: «أبشروا آل عمار وآل ياسر فإن موعدكم الجنة»، وفي رواية: وطعن أبو جهل سمية في قلبها فماتت، ومات ياسر في العذاب، وهكذا ثبت آل ياسر على الإيمان باعوا أنفسهم في سبيل «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

وأخرج أبو نعيم عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار قال: أخذ المشركون عمارًا رضي الله عنه فلم يتركوه حتى سب رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر آلهتهم بخير، فلما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما وراءك؟»، قال: شر يا رسول الله، ما تُركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فكيف تجد قلبك؟»، قال: أجد قلبي مطمئنًا بالإيمان قال: «فإن عادوا فعد»[(١)].

ثبات خباب بن الأرت رضي الله عنه

وهذا خباب بن الأرت أحد المستضعفين الذين ثبتوا أمام طغاة مكة ولم يهنوا ولم يحزنوا لأنه كان من الأعلون بإيمانهم وبعقيدتهم، أخرج ابن سعد (جـ٣، ص:١١٧)، عن الشعبي قال: دخل خباب بن الأرت رضي الله عنه على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأجلسه على متكئه فقال: ما على الأرض أحد أحق بهذا المجلس من هذا إلا رجل واحد، قال له خباب: من هو يا أمير المؤمنين؟، قال: بلال، فقال خباب: ما هو بأحق مني إن بلال كان له في المشركين من يمنعه الله به ولم يكن لي أحد يمنعني، فلقد رأيتني يومًا أخذوني فأوقدوا لي نارًا ثم سلقوني فيها ثم وضع رجل رجله على صدري فما اتقيت الأرض - أو قال برد الأرض - إلا بظهري قال: ثم كشف عن ظهره فإذا هو قد برص.

---

(١) «حلية الأولياء» (جـ١، ص: ١٤٠).

وعند أبي نعيم في (الحلية) (جـ١، ص:١٤٤)، عن الشعبي قال: سأل عمر ﷺ بلالاً عما لقي من المشركين، فقال خبـاب: يا أمير المؤمنين انظر إلى ظهري، فقال عمر: ما رأيت كاليوم! قال: أوقدوا لي نارًا فما أطفأها إلا ودك ظهري.

ومما ثبت خباب وأصحابه ﷺ ما أخـرجـه البخاري عن خباب ﷺ يقول: أتيت النبي ﷺ وهو متوسد ببردة وهو في ظل الكعـبة وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعو الله؟، فقعد وهو محمر وجهه، فقال: **«قد كان من كان قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله عزَّ وجلَّ - زاد: والذئب على غنمه - ولكنكم تستعجلون»**.

ثبات أبي ذر ﷺ

أخرج البـخاري عن ابن عباس ﷺ قـال: فقال - يعني أبا ذر -: يا معـشر قريش إني أشـهد أن لا إله إلا الله وأشهـد أن محمدًا عـبده ورسوله، فـقالوا: قوموا إلى هذا الصابىء، فقاموا فضربت لأموت فأدركني العباس فأكب علي ثم أقبل عليهم فقـال: ويلكم تقتلون رجلاً من غفار ومتـجركم وممركم على غفار؟ فأقلعوا عني، فلما أن أصبحت الغد رجـعت فقلت مثل ما قلت بالأمس فقالوا: قوموا إلى هذا الصـابىء فصنع بي مثل ما صنع بالأمس فأدركني العـباس فأكب علي وقال مثل مقالته بالأمس.

هذا الصحابي الذي لم يمر على إسلامه سـاعات حمل هم الدعوة وأصر أن يخرج ليعلن إسلامه على الملأ ليعلم الجـميع أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فأصابه ما أصابه من أذى حـتى كاد أن يموت ولكنه لم يزل يصرخ فيهم: لا إله إلا الله . . . إنه الثبات أمام الطغاة.

حاله رضي الله عنه:

إن العقيدة في قلوب رجالها	**من ذرة أقوى من ألف مهند**

فهل لما أصابه الأذى والضرب انسحب من ميدان الدعوة وفر بنفسه من أذى هؤلاء؟

كلا! بل إنه رجع إليه في الغد يعلنها على الملأ في ثبات المؤمنين حاله كما أخبر ربنا عزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ (آل عمران: ١٢٠).

والمؤمنون على عناية ربهم يتوكلون	**لا خوف يرهبهم ولا هم في الحوادث يحزنون**
لو مر أحدهم على فرعون يجتز الرؤوس	**لأراك في الإفصاح هارون وفي الإقدام موسى**

ثبات عثمان بن مظعون رضي الله عنه

لما رأى عثمان بن مظعون رضي الله عنه ما فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من البلاء وهو يغدو ويروح في أمان من الوليد بن المغيرة، قال: والله إن غدوي ورواحي آمنًا بجوار رجل من أهل الشرك وأصحابي وأهل ديني يلقون من الأذى والبلاء ما لا يصيبني لنقص كبير في نفسي، فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له: يا أبا عبد شمس وفت ذمتك قد رددت إليك جوارك قال: يا ابن أخي لعله آذاك أحد من قومي؟ قال: لا ولكني أرضى بجوار الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولا أُريد أن أستجير بغيره قال: فانطلق إلى المسجد فاردد عليَّ جواري علانية كما أجرتك علانية قال: فانطلقا ثم خرجا حتى أتيا المسجد فقال لهم الوليد: هذا عثمان رضي الله عنه قد جاء يرد عليَّ جواري، قال لهم: قد صدق قد وجدته وفيا كريم الجوار ولكني أحببتُ أن لا أستجير بغير الله، فقد رددت عليه جواره، ثم انصرف عثمان ولبيد

بن ربيعة بن مالك بن كلاب القيسي في المجلس من قريش ينشدهم فجلس معهم عثمان فقال لبيد وهو ينشدهم:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

فقال عثمان: صدقت فقال:

وكل نعيم لا محالة زائل

فقال عثمان: كذبت، نعيم أهل الجنة لا يزول، قال لبيد بن ربيعة: يا معشر قريش، والله ما كان يؤذى جليسكم فمتى حدث فيكم؟ فقال رجل من القوم: إن هذا سفيه في سفهاء معه قد فارقوا ديننا فلا تجدن في نفسك من قوله، فرد عليه عثمان حتى سرى ـ أي عظم ـ أمرهما فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فخضرها ـ سودها ـ والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان فقال: أما والله! يا ابن أخي إن كانت عينك عما أصابها لغنية لقد كنت في ذمة منيعة فقال عثمان: بلى والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى ما أصاب أختها في الله وإني لفي جوار هو أعز وأقدر يا أبا عبد شمس، فقال عثمان بن مظعون رضي الله عنه فيما أصيب من عينه:

فإن تك عيني في رضى ربي نالها ... يد ملحد في الدين ليس بمهتد

فقد عوض الرحمن منها ثوابه ... ومن يرضه الرحمن يا قوم يسعد

فإني وإن قلتم غوى مضلل ... سفيه على دين الرسول محمد

أريد بذاك الله والحق ديننا ... على رغم من يبغي علينا ويعتدي

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه فيما أصيب من عين عثمان بن مظعون:

أمن تذكر دهر غير مأمون	أصبحت مكتئبًا تبكي كمحزون
أمن تذكر أقوام ذوي سفه	يغشون بالظلم من يدعو إلى الدين
لا ينتهون عن الفحشاء ما سلموا	والغدر فيهم سبيل غير مأمون
ألا ترون أقل الله خيرهم	إذا غضبنا لعثمان بن مظعون
إذ يلطمون ولا يخشون مقلته	طعنا دراكا[١] وضربا غير مأفون[٢]
فسوف يجزيهم إن لم يمت عجلا	كيلا بكليل جزاء غير مغبون[٣]

ثبات خبيب بن عدي رضي الله عنه

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ عشرة رهط سرية عينًا وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري جد عاصم بن عمر بن الخطاب، فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهدأة وهو بين عُسفان ومكة، ذكروا لحي من هُذيل يقال لهم «بنو لحيان» فنفروا لهم قريبًا من مائتي رجل كلهم رام فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم تمرًا تزودوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب فاقتصوا آثارهم، فلما رآهم عاصم وأصحابه لجئوا إلى فدفد وأحاط بهم القوم فقالوا لهم: انزلوا وأعطونا بأيديكم ولكم العهد والميثاق ولا نقتل منكم أحدًا.

قال عاصم بن ثابت أمير السرية: أما أنا فوالله لا أنزل اليوم في ذمة كافر اللهم أخبر عنا نبيك، فرموهم بالنبل فقتلوا عاصمًا في سبعة فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق منهم خبيب الأنصاري وابن دثنه ورجل آخر، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فأوثقوهم، فقال الرجل الثالث: هذا أول

(١) اتباع الشيء بعضه بعض.
(٢) غير ناقص.
(٣) «حياة الصحابة» (جـ١، ص: ٢٨١-٢٨٣).

الغدر والله لا أصحبكم إن لي في هؤلاء لأسوة يريد القتلى، فجرَّروه وعالجوه على أن يصحبهم فأبى فقتلوه، فانطلقوا بخبيب وابن دثنه حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر فابتاع خبيبًا بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف وكان خبيب هو الذي قتل الحارث بن عامر يوم بدر فلبث خبيب عندهم أسيرًا فأخبرني عبيد الله بن عياض أن بنت الحارث أخبرته أنهم حين اجتمعوا استعار منها موسى يستحد بها فأعارته فأخذ ابنًا لي وأنا غافلة حين أتاه، قالت: فوجدته مُجلسه على فخذه والموسى بيده ففزعت فزعة عرفها خبيب في وجهي فقال: تخشين أن أقتله ما كنت لأفعل ذلك؛ والله ما رأيت أسيرًا قط خيرًا من خُبيب، والله لقد وجدته يومًا يأكل من قطف عنب في يده وإنه لموثق في الحديد وما بمكة من ثمر، وكانت تقول: إنه لرزق من الله رزقه خبيبًا، فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه في الحل قال لهم خبيب: ذروني أركع ركعتين، فتركوه فركع ركعتين ثم قال: لولا أن تظنوا أن ما بي جزع لطوَّلتها، اللهم أحصهم عددًا.

ما أبالي حين أقتل مسلمًا ... على أي شق كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

فقتله ابن الحارث، فكان خبيب هو الذي سنَّ الركعتين[1].



(١) أخرجه البخاري (ح٣٠٤٥).

الفصل الرابع

ثبات التابعين ومن سار على نهجهم

ثبات أبي مسلم الخولاني رضي الله عنه

أبو مسلم الخولاني واحد من الذين تصدوا للكفرة والجبابرة، فكان آية في ثباته وآية في إيمانه.

عن شرحبيل بن مسلم الخولاني قال: تنبأ الأسود بن قيس العنسي باليمن فأرسل إلى أبي مسلم فقال له: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟، قال: نعم، قال: فتشهد أني رسول الله؟! قال: ما أسمع، قال: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟، قال نعم، قال: فتشهد أني رسول الله؟، قال: ما أسمع، قال: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟، قال: نعم، قال: فتشهد أني رسول الله؟، قال: ما أسمع، قال: فأمر بنار عظيمة فأُججت وطرح فيها أبو مسلم فلم تضره، فقال له أهل مملكته: إن تركت هذا في بلادك أفسدها عليك، فأمره بالرحيل، فقدم المدينة وقد قبض رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر، فقام إلى سارية المسجد يصلي فبصر به عمر بن الخطاب فقال: من أين الرجل؟ قال: من اليمن، قال: فما فعل عدو الله بصاحبنا الذي حرقه بالنار فلم تضره؟ قال: ذاك عبد الله بن ثوب، قال: نشدتك بالله عزَّ وجلَّ أنت هو؟ قال: اللهم نعم، قال: فقبل ما بين عينيه ثم جاء به حتى أجلسه بينه وبين أبي بكر وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمة محمد ﷺ من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الرحمن عليه السلام[1].

(١) «صفة الصفوة» (جـ١).

ثبات سعيد بن جبير رضي الله عنه

لما أُدخل سعيد بن جبير على الحجاج بن يوسف الثقفي، قال له: من أنت؟ فقال سعيد: سعيد بن جبير، فقال الحجاج: بل أنت شقي بن كُسير، قال سعيد: بل كانت أُمي أعلم باسمي منك.

قال الحجاج: شقيت أنت وشقيت أمك.

قال سعيد: الغيب يعلمه غيرك.

قال الحجاج: لأبدلنك بالدنيا نارًا تلظى.

قال سعيد: لو أني أعلم أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهًا.

فقال: فما قولك في محمد؟

قال سعيد: نبي الرحمة وإمام الهدى ﷺ رسول رب العالمين إلى الناس كافة بالموعظة الحسنة.

فقال الحجاج: فما قولك في علي بن أبي طالب في الجنة هو أو في النار؟!

فقال سعيد: لو دخلتها فرأيت أهلها عرفت من فيها فما سؤالك عن غيب حُفِظَ بالحجاب؟!

قال: فما قولك في الخلفاء؟

قال سعيد: لست عليهم بوكيل، كل امرئ بما كسب رهين.

قال الحجاج: أشتمهم أم أمدحهم؟

قال سعيد: لا أقول ما لا أعلم إنما استحفظت أمر نفسي.

قال الحجاج: فأيهم أعجب إليك؟

قال سعيد: أرضاهم لخالقي.

قال الحجاج: فأيهم أرضى للخالق؟

قال سعيد: علم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم.

قال الحجاج: فأي رجل أنا يوم القيامة؟!

قال سعيد: أنا أهون على الله من أن يطلعني على الغيب.

قال الحجاج: أبيت أن تصدقني؟

قال سعيد: بل لم أرد أن أكذبك.

قال الحجاج: دع عنك هذا كله أخبرني ما لك لم تضحك قط؟

قال سعيد: لم أر شيئًا يضحكني وكيف يضحك مخلوق خلق من طين والطين النار تأكله.

قال الحجاج: فما بالنا نضحك؟

قال سعيد: لم تستوِ القلوب، كذلك خلقنا الله أطوارا.

قال الحجاج: هل رأيت شيئًا من اللهو؟

قال سعيد: لا أعلمه.

فدعا الحجاج بالعود والناي، فلما ضرب بالعود ونفخ في الناي بكى سعيد.

فقال الحجاج: ما يبكيك؟

قال: يا حجاج ذكرتني أمرًا عظيمًا، والله لا شبعت ولا رويت ولا اكتسيت ولا زلت حزينًا لما رأيت.

قال الحجاج: وما كنت رأيت هذا اللهو؟

فقال سعيد: بل هو والله الحزن يا حجاج أما هذه النفخة فذكرتني يومًا عظيمًا يوم ينفخ في الصور، وأما العود فشجر قطعت في غير حق، وأما الأوتار فإنها أمعاء الشاء يبعث بها معك يوم القيامة.

قال الحجاج: أنا أحب إلى الله منك.

قال سعيد: لا يقدم أحد على ربه حتى يعرف منزلته منه، والله بالغيب أعلم.

قال الحجاج: كيف أقدم على ربي في مقامي هذا وأنا مع إمام الجماعة وأنت مع إمام الفرقة والفتنة؟

قال سعيد: ما أنا بخارج عن الجماعة ولا أنا براض عن الفتنة، ولكن قضاء الرب نافذ لا مرد له.

قال الحجاج: كيف ترى ما نجمع لأمر المؤمنين؟

قال سعيد: لم أر.

فدعا الحجاج بالذهب والفضة واللؤلؤ والزبرجد والياقوت فجمعه بين يدي سعيد بن جبير.

فقال سعيد: هذا أحسن إن قمت بشرطه.

قال الحجاج: وما شرطه؟

قال سعيد: أن تشتري بما تجمع الأمن من الفزع الأكبر يوم القيامة فصالح وإلا ففزعة واحدة (تذهب كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها) ولا خير في شيء جمع للدنيا إلا ما طاب وزكي.

قال الحجاج: فترى جمعنا طيبًا؟

قال سعيد: برأيك جمعته وأنت أعلم بطيبه.

قال الحجاج: أتحب أن لك شيئًا منه؟

قال سعيد: لا أحب ما لا يحب الله.

قال الحجاج: ويلك.

قال سعيد: الويل لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار.

قال الحجاج: اختر لنفسك يا سعيد أي قتلة تريد أن أقتلك؟

قال سعيد: اختر لنفسك يا حجاج فوالله ما تقتلني إلا قتلك الله مثلها في الآخرة.

قال الحجاج: أفتريد أن أعفو عنك؟

قال سعيد: إن كان العفو فمن الله، وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر.

قال الحجاج: اذهبوا به فاقتلوه، فلما خرج سعيد من الباب ضحك فأخبر الحجاج فأمر برده فقال: ما يضحكك يا سعيد؟

قال سعيد: عجبت من جرأتك على الله وحلم الله عليك.

فأمر الحجاج بالنطع فبسط ثم قال: اقتلوه.

فقال سعيد: حتى أصلي ركعتين، فاستقبل القبلة وهو يقول: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا مسلمًا وما أنا من المشركين».

قال الحجاج: اصرفوه عن القبلة فصرفوه.

قال سعيد: فأينما تولوا فثم وجه الله.

قال الحجاج: كبوه لوجهه.

قال سعيد: «منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى».

فقال الحجاج: اذبحوه.

فقال سعيد: إني أشهدك يا حجاج أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، أستحفظكهن يا حجاج حتى تلقاني يوم القيامة، ثم دعا سعيد الله فقال: اللهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدي، فَذُبِحَ - رحمه الله -.

جزاء الحجاج:

قال الدكتور سيد العفاني: بلغنا أن الحجاج عاش بعده خمسة عشر ليلة، وكان ينادي بقية حياته: ما لي وسعيد بن جبير؟ كلما أردت النوم أخذ برجلي. وقيل: لم يلبث الحجاج بعده إلا أربعين يومًا، وكان إذا نام يراه في المنام يأخذ بمجامع ثوبه ويقول: يا عدو الله فيم قتلتني؟ فيقول الحجاج: ما لي ولسعيد بن جبير.. ما لي ولسعيد بن جبير؟ وقال أيضًا: إن الحجاج عاش بعده أيامًا قلائل فسلط الله على الحجاج البرودة حتى كانت النار حوله يضع يده على الكانون فيحترق الجلد ولا يحس بالحرارة ووقعت الأكلة في داخله والدود فبعث إلى الحسن البصري فقال له: أما قلت لك: لا تتعرض للعلماء؟ قتلت سعيدًا، قال الحجاج: أما إني ما طلبتك لتدعو لي ولكن ليرحني الله مما أنا فيه، فهلك وكان ينادي بقية حياته ما لي ولسعيد بن جبير.. ما لي ولسعيد بن جبير؟ قال عمر بن عبد العزيز ﵁: لو تخابثت الأمم فجاءت كل أمة بخبيثها وجئنا بالحجاج لغلبناهم.

وأطلق سليمان بن عبد الملك في غداة واحدة أحدًا وثمانين ألف أسير كانوا في سجن الحجاج، وقيل: إنه لبث في سجنه ثمانون ألفًا منهم ثلاثون ألف امرأة، وعرضت السجون بعد الحجاج فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفًا.

وقال هشام بن حسان: أحصوا ما قتل الحجاج صبرًا، فبلغ مائة ألف وعشرين ألفًا.

وقال الإمام أحمد: قُتل سعيد بن جبير وما على الأرض أحد إلا وهو محتاج - أو قال: مفتقر - إلى علمه.

ولما مات الحجاج سجد الحسن شكرًا لله وقال: اللهم أمته فأذهب عنا سنته، ولما أخبر إبراهيم النخعي بموته بكى من الفرح[١].

ثبات حطيط الزيات

إنه شاب نشأ في طاعة الله ربه ومولاه لا يعرف المراوغة ولا يعرف له النفاق طريقًا معتصمًا بقول النبي ﷺ: **«سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»**[٢].

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ عندما سئل: أي الجهاد أفضل؟، قال: **«كلمة حق عند سلطان جائر»**[٣].

أرسل إليه الحجاج - وهو من عرف في ظلمه وطغيانه - فلما جيء به قال له: أنت حطيط؟

---

(١) «الجزاء من جنس العمل» (جـ٢) بتصرف يسير.
(٢) أخرجه الترمذي والحاكم وقال: صحيح الإسناد.
(٣) أخرجه أبو داود والترمذي.

قال: نعم، سل عما بدى لك فإني عاهدت الله عند المقام على ثلاث: إن سئلت لأصدقن، وإن ابتليت لأصبرن، وإن عوفيت لأشكرن.

قال الحجاج: فما تقول في؟

قال: إنك من أعداء الله في الأرض تنتهك المحارم وتقتل بالظنة.

قال: فما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان؟

قال: أقول إنه أعظم منك جرمًا وإنما أنت خطيئة من خطاياه.

قال الحجاج: ضعوا عليه العذاب.

فانتهى له العذاب إلى أن شقق له القصب ثم جعلوه على لحمه وشدوه بالحبال ثم جعلوا يمدون قصبة قصبة حتى انتحلوا لحمه فما سمعوه يقول شيئًا.

فقيل للحجاج: إنه في آخر رمق فقال: أخرجوه فارموا به في السوق، قال جعفر ـ وهو الراوي ـ: فأتيته أنا وصاحب له فقلنا له: حطيط ألك حاجة؟

قال: شربة ماء، فأتوه بشربة ماء ثم مات، وكان ابن ثماني عشرة سنة ـ رحمه الله ـ.

ثبات الإمام الأوزاعي ـ رحمه الله ـ

هو الإمام الحجة الفقيه عبد الرحمن بن عمرو بن محمد شيخ الإسلام وعالم أهل الشام أبو عمرو الأوزاعي، إمام يُقتدى به، دخل عبد الله بن علي دمشق في يوم من الأيام فقتل فيها ثمانية وثمانين ألف مسلم، ثم يدخل الخيول مسجد بني أمية، ثم يتبجح ويقول: من يُنكر علي؟!! من ينكر علي فيما أفعل؟!!

قالوا: لا نعلم أحدًا إلا الإمام الأوزاعي فيستدعيه، فيذهب من يذهب ليستدعيه، فعلم أنه الامتحان وعلم أنه الابتلاء، وعلم أنه إما أن ينجح نجاحًا ما بعده رسوب، وإما أن يرسب رسوبًا ما بعده نجاح.

قام واغتسل وتحنط وتكفن ولبس ثيابه من على كفنه ثم أخذ عصاه في يده ثم اتجه إلى من حفظه في وقت الرخاء فقال: يا ذا العزة التي لا تضام والركن الذي لا يرام يا من لا يهزم جنده ولا يغلب أولياؤه أنت حسبي، ومن كنت حسبه فقد كفيته، حسبي الله ونعم الوكيل.

ثم انطلق وقد اتصل بالله سبحانه وتعالى انطلاقة الأسد إلى ذلك الرجل، وقد صف وزراءه، وصف سماطين من الجلود يريد أن يقتله وأن يرهبه بها قال: فدخلت يوم دخلت وإذا السيوف مسلطة وإذا السماط مُعد وإذا الأمور غير ما كانت أتوقع قال: فدخلت والله ما تصورت في تلك اللحظة إلا عرش الرحمن بارزًا والمنادي ينادي: «فريق في الجنة وفريق في السعير»، فوالله ما رأيته أمامي إلا كذباب، والله ما دخلت بلاطه حتى بعت نفسي من الله - جلَّ وعلا -، قال: فانعقد جبين هذا الرجل من الغضب ثم قال: أأنت الأوزاعي؟

قال: يقول الناس أني الأوزاعي.

قال: ما ترى في هذه الدماء التي سفكت؟

قال: حدثنا فلان عن فلان عن جدك ابن عباس وعن ابن مسعود وعن أنس وعن أبي هريرة وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»**[1].

---

(١) أخرجه أحمد والبخاري ومسلم.

قال: فتلمظ كما تتلمظ الحية، قال: قام الناس يتحفزون ويجمعون ثيابهم لئلا يصيبهم دمي، قال: ورفعت عمامتي ليقع السيف على رقبتي مباشرة، قال: وإذ به يقول: وما ترى في هذه الدُّور التي اغتصبنا والأموال التي أخذنا؟

قال: سوف يجردك الله عُريانًا كما خلقك الله فيسألك عن الصغير والكبير والنقير والقطمير، فإن كانت حلالاً فحساب وإن كانت حرامًا فعقاب.

فقال: فانعقد جبينه مرة أخرى من الغضب قال: وقام الوزراء يرفعون ثيابهم، قال: وقمت لأرفع عمامتي ليقع السيف على رقبتي، قال: وإذ به تنتفخ أوداجه ثم يقول: اخرج، قال: فخرجت فوالله ما زادني ربي إلا عزة.

رجال دعاة لا يفل عزمهم ... تهكم جبار ولا كيد ماكر

ثم جاء هذا الحاكم ومر على قبره بعد أن توفي فمر ووقف عليه وقال: والله ما كنت أخاف أحدًا على وجه الأرض كخوفي هذا المسجون في هذا القبر، والله إني كنت إذا رأيته رأيت الأسد بارزًا.

وقفة ثبات:

١ ـ قوة إيمان الإمام الأوزاعي حيث شهد له الجميع بأنه هو الذي سينكر عليه فعله.

٢ ـ أن من تعرف على الله في الرخاء عرفه في الشدة.

٣ ـ أن من حفظ الله حفظه الله.

٤ ـ أن من توكل على الله كفاه الله ما أهمه وفرج كربه.

وكنت إذا الطغيان أظهر بأسه ... وسل علينا سيفه وخناجره
دعوتك فاستنهضت بالفضل نصرتي ... فزلزلت بالعزم الأكيد محاجره

٥ ـ قول الحق وإن كان فيه الهلكة فإن فيه النجاة.

ثبات شيخ الإسلام أبي الحسن

ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ أنه أنكر على ابن طولون شيئًا من المنكرات وأمره بالمعروف فأُمر به فألقي بين يدي الأسد فكان الأسد يشمه ويحجم عنه فأمر برفعه من بين يدي الأسد وعظمه الناس، وسأله بعض الناس عن حاله حين كان بين يدي الأسد، فقال له: لم يكن عليَّ بأس قد كنت أفكر في سؤر السباع واختلاف العلماء فيه هل هو طاهر أم نجس؟

الله أكبر، إنه الثبات على الإيمان الذي جعل صاحبه لا يفكر في ذلك الأسد الضاري وإنما كان همه مسألة فقهية، وهنا يأتي سؤال: لماذا لم يرهب الأسد؟

والجواب: لأن من خاف الله خَوَّفَ الله منه كل شيء وأمنه من كل ضر، ومن خاف الناس خوفه الله من كل شيء.

ثبات أبي بكر النابلسي

ذلكم الزاهد العابد الورع الذي تربى في مدرسة القرآن التي موادها ﴿وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ (المائدة: ٥٤)، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨)، فنال أعلى الدرجات وساهم بنفسه لينال المكرمات، ها هو يوم أن ملك الفاطميون مصر عطلوا الصلوات وحاربوا أهل السنة وذبحوا العلماء واستدعى المعز أبا بكر النابلسي فقال: بلغني عنك أنك قلت: لو أن معي عشرة أسهم لرميت الروم بتسعة ورميت الفاطمين بسهم قال: لا، فظن أنه رجع عن قوله، قال: كيف؟

قال: قلت: ينبغي رميكم أيها الفاطميون بتسعة ورمي الروم بالعاشر، فأرغى وأزبد وأمر بضربه في اليوم الأول ثم أمر بإشهاره في اليوم التالي، ثم أمر في اليوم الثالث بسلخه حيًا فجيء بيهودي فجعل يسلخه وهو يقرأ القرآن حتى

أشفق عليه اليهودي فلما وصل في سلخه إلى قلبه طعنه بالسكين ليلقى ربه فكان يُسمى بالشهيد.

وقفة ثبات:

أي شهادة أعظم من تلك؟! مات وهو يدافع عن السنة فإذا سأله ربه يوم القيامة - وهو أعلم به - فيم قتلت يا أبا بكر؟ يقول: في الذود عن سنة نبيك محمد ﷺ، إي والله ما نال هؤلاء الإمامة في الدين إلا بالصبر على الأذى ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة: ٢٤).

فأين الثرى من الثريا وأين هؤلاء من علماء السوء الذين يحلون ما حرم الله اتباعًا للهوى؟! فهذا أحل الربا وقال: إنه لا ربا بين الفرد والدولة، وذاك أفتى بأن النقاب بدعة وعادة جاهلية حال هؤلاء كقول القائل:

يقولون هذا عندنا غير جائز ... ومن أنتم حتى يكون لكم عند

يأتي أبو بكر يوم القيامة في زمرة العلماء العاملين الذين هم ورثة الأنبياء والمرسلين، ويأتي هؤلاء في زمرة من قال الله فيهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ٤٤)، ومع هؤلاء الذين: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٣١).

ثبات العز بن عبد السلام سلطان العلماء - رحمه الله -

اعلم - علمني الله وإياك - أن الثبات على الإيمان هو الذي يدفع صاحبه لإحقاق الحق وإبطال الباطل دون خوف من أحد سواء أكان ذلك ملكًا أو أميرًا أو ظالمًا، بل هو الذي يجعلهم يهابون ويخافون من أهل الإيمان، وهيا لنعيش في أكناف الصالحين مع سلطان العلماء إنه العز بن عبد السلام.

كان الشيخ الجليل عز الدين بن عبد السلام قد تولى منصب قاضي القضاة وما إن تولى هذا المنصب حتى لاحظ أن أمراء البلاد وقادة الجيش ليسوا من أهل مصر وليسوا أحرارًا على الإطلاق بل هم مجلوبون اشتراهم السلطان من بيت المال وهم صغار فتعلموا اللغة العربية وعلوم الدين والفروسية والحرب وعندما شبوا عَيَّنهم في مناصبهم فهم أمراء مماليك عبيد، إذن فليس لهم حقوق الأحرار ولهذا فليس لهم أن يتزوجوا بحرائر النساء، وليس لهم أن يبيعوا أو يشتروا أو يتصرفوا إلا كما يتصرف العبيد، فبلغ ذلك الأمراء فعظم الخطب فيه واحتدم واشتد الأمر . . .

والشيخ مصمم لا يصحح لهم بيعًا ولا شراء ولا نكاح وتعطلت مصالحهم بذلك، وكان منهم نائب السلطان فاستشاط غضبًا فاجتمعوا وأرسلوا إليه فقالوا له: ماذا تريد؟ فقال الشيخ: نعقد لكم مجلسًا وينادي عليكم للبيع لبيت مال المسلمين ويحصل عتقكم بطريق شرعي، فرفعوا الأمر إلى السلطان فبعث إليه، فلم يرجع عن قوله، فجرت من السلطان كلمة فيها غلظة فغضب الشيخ وحمل حوائجه على حمار وأركب عائلته على حمير أخرى ومشى خلفهم خارجًا من القاهرة قاصدًا الشام فلم يصل إلى نحو نصف ما يريد حتى لحقه المسلمون، لم تكد امرأة ولا صبي ولا رجل يتخلف ولاسيما العلماء والصلحاء والتجار . . .

فبلغ الأمر السلطان وقيل له: متى راح الشيخ ذهب ملكك، فركب السلطان بنفسه ولحقه واسترضاه وطيب خاطره، فرجع الشيخ واتفق على أنه ينادي على الأمراء لبيعهم، فأرسل إليه نائب السلطان بالملاطفة فلم يقبل الشيخ ولم تفد الملاطفة معه فانزعج نائب السلطان وقال: كيف ينادي علينا هذا فركب بنفسه في جماعته وجاء إلى بيت الشيخ والسيف مسلول في يده فطرق الباب فخرج ولد الشيخ فرأى نائب السلطان فعاد إلى أبيه وحكى له ما رأى، فما اهتم الشيخ بذلك ولا تغير وقال: يا ولدي أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله، ثم خرج وحاله.

لا يملأ الهول قلبي قبل وقعته ولا أضيق به ذرعًا إذا وقعا

ثم خرج وكأن قضاء الله قد نزل على نائب السلطان فحين وقع بصره على النائب يبست يد النائب وارتجف وسقط السيف من يده وارتعدت مفاصله وبكى وسأل الشيخ أن يدعو له وقال: يا سيدي! خير أي شيء تعمل؟

فقال الشيخ: أنادي عليكم وأبيعكم!

فقال النائب: ففيم تصرف ثمننا.

قال الشيخ: في مصالح المسلمين.

قال النائب: فمن يقبضه.

قال الشيخ: أنا.

وتم للشيخ ما أراد، ونادى على الأمراء واحدًا واحدًا وغالى في ثمنهم وقبضه وأنفقه في وجوه الخير[1].

فأين علماء المسلمين من هذا الجبل الذي ثبت على إيمانه ولم يرهب أحدًا بل رهبه أعداؤه فأصبحوا أحبابه.

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى رجال الحي غير رجالها

من ثباته أيضًا ـ رحمه الله ـ:

طلع يوم العيد إلى القلعة والعساكر مصطفين بين يدي السلطان والأمراء تُقبل الأرض له فنادى في ذلك الموكب: يا أيوب ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أولِّك ملك مصر ثم تبيح الخمور؟!

---

(١) «من أخلاق العلماء» (٩٨-٩٩).

فقال السلطان: هل جرى هذا؟

فقال: نعم الحانة الفلانية يباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة ـ ينادي هكذا بأعلى صوته والعساكر واقفون ـ.

فقال السلطان أيوب: يا سيدي.. هذا أنا ما عملته.. هذا من زمان أبي..

فقال الشيخ: أنت من الذين يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ (الزخرف: ٢٢)، فرسم السلطان بإبطال الحانة.

قال الشيخ الباجي: سألت الشيخ لما جاء من عند السلطان وقد شاع هذا الخبر: يا سيدي كيف الحال؟

فقال: رأيته في تلك العظمة فأردت أن أهينه لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه! فقلت: يا سيدي.. أما خفته؟!!

فقال: والله يا بني استحضرت هيبة الله تعالى فصار السلطان قُدامي كالقط[1].

حاله ـ رحمه الله ـ:

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا ... فأقصر ما يمر به الوحول

هؤلاء هم العلماء وعيب أن يقال لغيرهم علماء إلا إذا ساروا سيرهم واقتفوا أثرهم، فأين سلطان العلماء من علماء عصرنا الذين يرون المنكرات والمخالفات ـ غناء، تبرج وسفور، وحكم بغير ما أنزل الله، وعلى الرغم من ذلك يباركون ويهللون، إن العز عز بإيمانه وثبت على الصراط المستقيم فكان له من اسمه نصيب.

ومن تكن الأسد الضواري جدوده ... يكن زاده رفداً ومطعمه عضبا

(١) «من أخلاق العلماء» (١٧٤-١٧٥).

ومن ثباته ـ رحمه الله ـ:

ومن صور ثبات العز بن عبد السلام ـ رحمه الله ـ هذا المشهد الرائع أنه كان يحكم دمشق وتوابعها الأمير إسماعيل الذي تواطأ مع الصليبيين على أن يناصروه ضد نجم الدين الأيوبي، ومقابل ذلك تنازل لهم عن بعض ضواحي البلاد وعن إحدى قلاع المسلمين الحصينة، وأنكر علماء الأمة هذه الخيانة ومنهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام الذي وقف ضد الأمير المذكور وقطع ذكر اسمه من الدعاء في خطبة الجمعة، فما كان من الأمير إلا أن عزل الشيخ واعتقله، فصبر الشيخ على اعتقاله صبر المؤمنين الصادقين، فما كان من الأمير إلا أن أرسل إلى الشيخ من يسترضيه ويعده ويمنيه ويقول: بينك وبين أن تعود إلى منصبك وزيادة أن تنكسر وتُقبل يده لا غير!!

فقال الشيخ لمن يعرض عليه ذلك: يا مسكين ما أرضى أن يُقبل السلطان يدي فضلاً عن أقبل يده!! يا قوم أنتم في وادٍ وأنا في وادٍ، الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به، فقال له رسول الأمير: إن الأمير قد أمرني إن لم توافق أن أشدد عليك في معتقلك.

فقال الشيخ: افعلوا ما بدا لكم!

وبقي الشيخ في معتقله إلى أن انتصر نجم الدين فأخرجه من معتقله معززًا مكرمًا[١].



(١) «أقباس روحانية» (ص: ١٧٤-١٧٥) محمد شيت خطاب.

ثبات أحمد بن حنبل - إمام أهل السنة -

هيا لنعيش مع إمام أهل السنة والجماعة، شيخ المحدثين، علم الأعلام، ناصر السنة وقامع البدعة، رافع لولاء الاتباع، يقول سيد حسين العفاني: انظر يا أخي لتعرف قدر سادات الرجال، لولا سياط على ظهر ابن حنبل ما صار إمام أهل السنة، يضرب في محنة خلق القرآن، ويُعذب ويخرج منها ذهبًا خالصًا، كانت نفسه عليه في الله تعالى أهون من نفس ذباب، وإنما تهون أنفسهم عليهم لتلمحهم العواقب، فعيون البصائر ناظرة إلى المآل لا إلى الحال، وشدة ابتلاء أحمد دليل على قوة دينه «فسبحان من أيَّده وبصَّره وقوَّاه ونصره»، وهيا لنرى ثباته على الإيمان في تلك المحنة.

قال محمد بن إبراهيم بن مصعب - وهو يومئذ على الشرط للمعتصم - خليفة إسحاق بن إبراهيم أنه قال: ما رأيت أحدًا لم يداخل السلطان ولا خالط الملوك أثبت قلبًا من أحمد يومئذ ما نحن في عينه إلا كأمثال الذباب.

قال الإمام: لما جيء بالسياط نظر إليها المعتصم فقال: ائتوني بغيرها فأتي بغيرها، ثم قال للجلادين: تقدموا، قال: فجعل يتقدم إليَّ الرجل فيضربني سوطين وهو في ذلك يقول لهم - يعني المعتصم -: شدوا.. قطع الله أيديكم، ثم يتنحى ثم يتقدم الآخر فيضربني سوطين وهو في كل ذلك يقول لهم: شدوا قطع الله أيديكم، فلما ضربت تسعة عشر سوطًا قام إلي - يعني المعتصم - فقال: يا أحمد علام تقتل نفسك؟! إني والله عليك شفيق قال: فجعل عُجيف ينخسني بقائم سيفه، وقال: أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم؟ وجعل بعضهم يقول: ويلك الخليفة على رأسك قائم، فقال لي: ويحك يا أحمد ما تقول؟

فأقول: أعطوني شيئًا مـن كتاب الله عزَّ وجلَّ أو سنة رسول الله ﷺ أقول به، قال: ثم رجع فجلس ثم قـال للجلاد: تقـدم.. أوجع.. قطع الله يدك، ثم قام الثـانية فجعل يقـول: ويحك يا أحمد أجـبني، فجعلوا يقـبلون علي ويقول: ويحك يا أحمد إمـامك على رأسك قائم، وجعل عبـد الرحمن يقول: من صنع من أصـحابك في هذا الأمـر ما تصنع؟ قـال: وجعل يقـول ـ يعني المعتـصم ـ: ويحك يا أحمد أجـبني إلى شيء لك فيه أدنى فرج حـتى أطلق عنك بيدي قال: فقلت: يا أمير المؤمنين أعطوني شيئًا من كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أو سنة رسول الله ﷺ أقول به، فرجع فـجلس فقال للجلادين: تقـدموا.. فجعل الجـلاد يتقدم ويضربني سوطين ويتنحى وهو في خلال ذلك يقول: شد.. قطع الله يدك!

قال أبي: فذهب عقلي فأفقت بعد ذلك، فإذا الأقياد قد أطلقت عني، فقال لي رجل ممن حضر: إنا كببناك على وجهك وطرحنا على ظهرك بارية ودُسناك، قال أبي: فما شعرت بذلك، واتوني بسويـق فقالوا: اشرب وتقيأ فقلت: لست أفطر، ثم جيء بي إلى دار إسحاق بن إبراهيم فحضـرت صلاة الظهر فتقدم ابن سماعـة فصلى، فلما انفتل من الصلاة قـال لي: صليت والدم يسيل في ثوبك؟ فقلت: قد صلى عمر وجرحه يثعب دمًا.

أقوال العلماء في الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ:

يقوم يعقـوب بن إبراهيم بن سعد الزهري يقبل جـبهة أحمـد ووجهه حين خرج من الحبس، وسليمان بن داود الهاشمي يقبل جبهة أحمد ورأسه.

وقال علي بن المديني: أحمـد بن حنبل سيدنا، وقال أيضًا: اتخـذت أحمد ابن حنبل إمـامًا فيـما بيني وبين الله، ومن يقـوى على ما يقـوى عليه أبو عـبد الله؟! وقال: إن الله ـ عـزَّ وجـلَّ ـ أعـز هـذا الدين برجلين ليـس لهـما ثالث؛ أبو بكر الصديق يوم الردة، وأحمد بن حنبل يوم المحنة.

وقال بشر بن الحارث: أدخل أحمد بن حنبل الكير فخرج ذهبًا أحمر فبلغ ذلك أحمد فقال: الحمد لله الذي رَضَّى بشرًا بما صنعنا[1].

ثبات شيخ الإسلام ابن تيمية

يقول الحافظ عمر بن البزار في (الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية) قال: حدثني من أثق به عن الشيخ وجيه الدين بن المنجا - قدس الله روحه - يقول: كنت حاضرًا مع الشيخ حينئذ فجعل - يعني الشيخ - يحدث السلطان بقول الله ورسوله في العدل وغيره ويرفع صوته على السلطان في أثناء حديثه حتى جثى على ركبتيه وجعل يقرب منه في أثناء حديثه حتى لقد قرب أن تلاصق ركبتيه ركبة السلطان والسلطان مع ذلك مقبل عليه بكلية مصغ لما يقول شاخص إليه لا يعرض عنه، وإن السلطان من شدة ما أوقع الله في قلبه من المحبة والهيبة سأل من يخصه من أهل حضرته من هذا الشيخ؟ أو قال ما معناه: إني لم أر مثله ولا أثبت قلبًا منه ولا أوقع من حديثه في قلبي ولا رأيتني أعظم انقيادًا مني لأحد منه فأخبر بحاله وما هو عليه من العلم والعمل فقال الشيخ للترجمان: قل لقازان: أنت تزعم أنك مسلم ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذن - على ما بلغنا - فعزوتنا وأبوك وجدك كانا كافرين وما عملا الذي عملت عاهدا فوفيا وأنت عاهدت فغدرت وقلت فما وفيت وجرت.

وسأله: إن أحببت أن أُعمر لك بلد آبائك حران وتنتقل إليه ويكون برسمك، فقال: لا والله لا أرغب عن مهاجر إبراهيم ﷺ وأستبدل به غيره، فخرج من بين يديه مكرمًا معززًا قد صنع له الله بما طوى عليه نيته

(١) «الجزاء من جنس العمل» (جـ٢، ص:٨٨-٩٠).

الصالحة من بذله نفسه في حقن دماء المسلمين من أيديهم وردهم على أهلهم وحفظ حريمهم[١].

ومن ثباته ـ رحمه الله ـ قوله: «ما يصنع أعدائي بي، أنا بستاني في صدري أينما رحت فهي معي، إن معي كتاب الله وسنة نبيه، إن قتلوني فقتلي شهادة، وإن نفوني فنفيي سياحة، وإن سجنوني فأنا في خلوة مع ربي، إن المحبوس من حبس عن ربه والأسير من أسره هواه».

وكان يقول: لن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه، فإن رجلاً شكا إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة فقال: لو صححت لم تخف أحدًا ـ أي خوفك من أجل زوال الصحة من قلبك ـ[٢].

وقد قص هذه القصة الشيخ الصالح محمد بن أبي بكر بن قوام البالسي وكان يوم قازان في جملة من كان مع الشيخ تقي الدين ابن تيمية، وجاء فيها: وقرب إلى الجماعة طعامًا فأكلوا منه إلا ابن تيمية، فقيل له: ألا تأكل؟ فقال: كيف آكل طعامكم وكله مما نهبتم من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس قال: ثم إن قازان طلب منه الدعاء فقال في دعائه: اللهم إن كان هذا عبدك محمود إنما يقاتل لتكون كلمتك هي العليا وليكون الدين كله لك فانصره وأيده وملكه البلاد والعباد، وإن كان إنما قام رياء وسمعة وطلبًا للدنيا ولتكون كلمته هي العليا وليذل الإسلام وأهله فاخذله وزلزله ودمره واقطع دابره، قال: وقازان يؤمن على دعائه ويرفع يديه، قال: فجعلنا نجمع ثيابنا خوفًا من أن تتلوث بدمه إذا أمر بقتله، قال: فلما خرجنا من عنده قال له قاضي

---

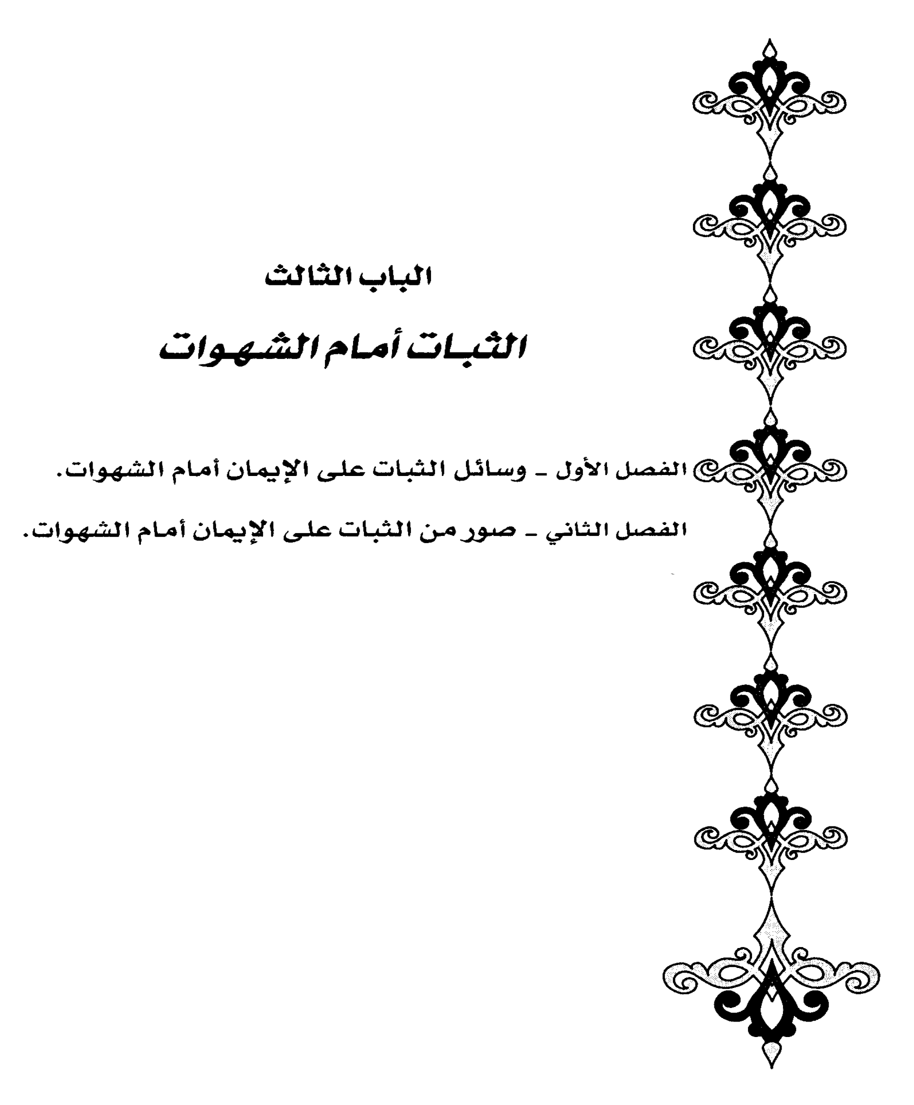
(١) «الجزاء من جنس العمل» (جـ٢، ص:٩٢-٩٣).

(٢) «الجزاء من جنس العمل» (جـ٢، ص:٩٦)، و«حياة ابن تيمية» (ص:٥١).

القضاة نجم الدين بن صرصري وغيره: كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك، والله لا نصحبك من هنا، فقال: وأنا والله لا أصحبكم قال: فانطلقنا عصبة وتأخر هو في خاصة نفسه ومعه جماعة من أصحابه فتسامعت به الخواقين والأمراء من أصحاب قازان فأتوه يتبركون بدعائه وهو سائر إلى دمشق وينظرون إليه قال: والله ما وصل إلى دمشق إلا في نحو ثلاثمائة فارس في ركابه وكنت أنا من جملة من كان معه، وأما أولئك الذين أبوا أن يصحبوه فخرج عليهم جماعة من التتر فشلَّحوهم عن آخرهم[١].



(١) «الجزاء من جنس العمل» (جـ٢، ص: ٩٤-٩٥)، و«حياة ابن تيمية» (ص: ٥١).



الباب الثالث

الثبات أمام الشهوات

الفصل الأول ـ وسائل الثبات على الإيمان أمام الشهوات.

الفصل الثاني ـ صور من الثبات على الإيمان أمام الشهوات.

الفصل الأول

وسائل الثبات على الإيمان أمام الشهوات

في زمن استعرت فيه نار الشهوات وأطلت برأسها، فهي تلفح القلوب وتحرق الوجوه...!!

في زمن أصبحت فيه الرذيلة علامة من علامات التقدم والرقي، وأضحت فيه الفضيلة رجعية وسلبية، وحالهم ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (النمل: ٥٦).

في زمن استعرت فيه الشهوات، وانكشفت فيه العورات، وراجت فيه تجارة الجسد، وأطل الحرام برأسه، وصار الحياء سلعة نادرة، وبات طريق الحرام ممهدًا، ووضعت العراقيل في طريق الحلال، وارتدى المنكر ثياب المعروف، وأطفئت النار بمزيد الحطب، واختلط فيه الحابل بالنابل، وصارت ظلمات بعضها فوق بعض، في زمن أصبح عِرض المرأة وشرفها وعفتها وحياؤها لا يساوي حذاءً أو كساءً فهي ضربت بالعرض والعفة عرض الحائط من أجل إعلان هابط لسلعة من السلع، في زمن ماتت فيه المروءة فبكى أصحابها لفقدانها.

مررتُ على المروءة وهي تبكي	فقلت علام تنتحب الفتاة
فقالت كيف لا أبكي وأهلي	جميعًا دون خلق الله مات
مررت على المروءة وهي تبكي	فقد قلَّت من الدنيا الهداة
وإن مروءة من غير دين	ضلال لا تقول به الثقات
تركنا حد مولانا وراءً	تنازعنا بذاك النازعات
وقلدنا سوانا عن ضلال	وقد لعبت بأكثرنا الغواة
أنبني الدور من أجل الملاهي	وهاتيك المساجد خاويات؟!

وكم يلقى الفساد بنا احتراماً ... وأهل الحق في الدنيا موات
إذا وعظ الورى الوعاظ يوماً ... فتسخر بالكلام الناشئات
مجلات تثير لنا فساداً ... غوان في الصحائف عاريات
يسر بها الشباب ويقتنيها ... ولا يأتي الوضوء ولا الصلاة
وأوراق الملاهي في انتشار ... بيوت بالملاهي عامرات
وكم رمضان نحييه بإثم ... لياليه بلهو ساهرات
نحج البيت رواداً ولكن ... قلوب بعد ذاك مخربات
إذا زمن فقدنا الدين فيه ... فأيام السعادة ذاهبات
افتش لا أرى أهلي أمامي ... جميعاً دون خلق الله ماتوا

في ذلك الزمن يحتاج المسلم والمسلمة في طريقهم إلى الله إلى وسائل الثبات على الإيمان أمام طوفان الشهوات، وها هي جمعتها إليك علَّها تكون قوارب النجاة إلى شط العفة والاستقامة.

أولاً ـ تقوى الله تعالى

فهي وصية الله تعالى لنا وللأمم من قبلنا ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ (النساء: ١٣١).

قال طلق بن حبيب: إذا وقعت الفتنة فأطفئوها بالتقوى، قالوا: وما التقوى؟ قال: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله.

وسئل أبو هريرة ﷺ عن التقوى فقال: هل أخذت طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عزلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه، قال: ذاك التقوى.

وأخذ هذا ابن المعتمر وقال:

خل الذنوب صغيرها	وكبيرها فهو التُّقى
واصنع كماش فوق	أرض الشوك يحذر ما يرى
ولا تحقرن صغيرة	إن الجبال من الحصى

فالتقوى هي حصن الأمان وبساط الثبات متى حققه العبد ثبت أمام سيل الشهوات، فهي ترك ما تهوى لما تخشى.

يقول الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ: إنما الفضيلة في أمر هذه النفس أن تقوم عليها بقوة العزم فتمنعها عن كل معصية وتصونها عن كل فضول، فإذا فعلت ذلك كنت قد اتقيت الله تعالى في عينك وأذنك ولسانك وقلبك وبطنك وفرجك وجميع أركانك، وألجمتها بلجام التقوى، ولهذا الباب شرح يطول وأما الذي لابد منه ها هنا فأن نقول: من أراد أن يتقي الله فليراع الأعضاء الخمسة فإنهن الأصول: وهي العين والأذن واللسان والقلب والبطن، فيحرص عليها بالصيانة لها عن كل ما يخاف منه ضرراً في أمر الدين من معصية وحرام وفضول وإسراف من حلال، وإذا حصل صيانة هذه الأعضاء فمرجو أن يكف سائر أركانه ويكون قد قام بالتقوى الجامعة بجميع بدنه لله تعالى[1].

وكما نصحت إحدى الصالحات من السلف بنيها فقالت لهم: تعوَّدوا حب الله وطاعته، فإن المتقين ألفت جوارحهم الطاعة فاستوحشت من غيرها، فإذا أمرهم الملعون بمعصية مرت المعصية بهم محتشمة فهم لها منكرون.



(١) «كتاب التقوى» (ص: ٢٤).

ثانيًا - مراقبة الله تعالى

اعلم - علمني الله وإياك - أن من أعظم وسائل الثبات التي تصدك عن المعصية وتملأ قلبك إيمانًا مراقبة الله تعالى وهي كما فسرها النبي ﷺ عندما سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

وهي دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه، فاستدامته لهذا العلم اليقين هي المراقبة وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه، ناظر إليه، سامع لقوله، وهو مطلع على عمله كل وقت وكل لحظة وكل نفس وكل طرفة عين، قال تعالى: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴾ (الأحزاب: ٥٢)، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ (الحديد: ٤).

قال عامر بن عبد قيس: ما نظرت إلى شيء إلا رأيت الله تعالى أقرب إليه مني.

وقال محمد بن علي الترمذي: «اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك، واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه»[2].

ذُكر عن أعرابي قال: خرجت في بعض الليالي المظلمة فإذا أنا بجارية كأنها علم - أي جبل - فأردتها عن نفسها فقالت: ويلك .. أما كان لك زاجرًا من عقل إذا لم يكن لك ناهٍ من دين؟ فقلت: إنه والله ما يرانا إلا الكواكب، فقالت: فأين مُكَوكِبها؟.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.
(٢) «ولا أقسم بالنفس اللوامة» (ص: ١١٨).

وسئل الجنيد بم يستعان على غض البصر؟ قال: بعلمك أن نظر الله إليك أسبق إلى ما تنظر إليه.

وقال المحاسبي: المراقبة علم القلب بقرب الرب.

وكان الإمام أحمد ينشد:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل ... خلوت ولكن قل علي رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا ان ما تُخفي عليه يغيب[1]

ثالثا - تذكر حقوق المنعم

ومما يُثبت العبد أن يتذكر أن عليه حقوقًا لابد أن يرعاها، فالله أنعم عليه، فهو يتقلب في نعمه وفي خيره، يقول ابن الجوزي - رحمه الله -: نازعتني نفسي إلى أمر مكروه في الشرع وجعلت تنصب لي التأويلات وتدفع الكراهة وكانت تأويلها فاسدة والحجة ظاهرة على الكراهة، فلجأت إلى الله في دفع ذلك عن قلبي وأقبلت على القراءة، وكان درسي قد بلغ إلى سورة يوسف، وذلك الخاطر قد شغل قلبي حتى لا أدري ماذا أقرأ، فلما بلغت إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾(يوسف:٢٣)، وكأني خوطبت بها، فأفَقْتُ من تلك السكرة فقلت: يا نفس أفهمت؟ هذا حر بيع ظلمًا فراعى حق من أحسن إليه وسماهُ مالكًا وإن لم يكن عليه ملك فقال: إنه ربي، ثم زاد في بيان موجب كفه عما يؤذيه فقال: أحسن مثواي، فكيف بك وأنت عبد على الحقيقة لمولى مازال يحسن إليك من ساعة وجودك؟، وإن ستره عليك الزلل أكثر من عدد الحصى.

---

(١) «التقوى» (٣٤).

أفما تذكرين كيف رباك وعلمك ورزقك ودافع عنك وساق الخير إليك، وهداك أقوم طريق ونجاك من كل كيد؟ وضم إلى حسن الصورة الظاهرة جودة الذهن الباطن؟!

وسهل لك مدارك العلوم حتى نلت في قصير الزمان ما لم ينله غيرك في طويله، وجلى في عرصة لسانك عرائس العلم في حلل الفصاحة بعد أن ستر عن الخلق مقابحك فتلقوها منك بحسن الظن، وساق رزقك بلا كلفة تكلف ولا كدر من رغد غير نزر؟ فوالله ما أدري أي نعمة عليك أشرح لك، حسن الصورة وصحة الآلات؟ أم سلامة المزاج واعتدال التركيب؟ أم لطف الطبع الخالي عن خساسة؟ أم إلهام الرشاد منذ الصغر؟ أم الحفظ بحسن الوقاية عن الفواحش والزلل؟ أم تحبب طريق النقل واتباع الأثر من غير جمود على تقليد لمعظم ولا انخراط في سلك مبتدع ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ (النحل:١٨)، كم كائد نصب لك المكايد فوقاك؟ كم عدو حط منك بالذم فرقاك؟ كم أعطش من شراب الأماني خلقًا وسقاك؟ كم أمات من لم يبلغ لعض مرادك وأبقاك؟ فأنت تصبحين وتمسين سليمة البدن محروسة الدين في تزيد من العلم وبلوغ الأمل، فإن منعت مرادًا فرزقت الصبر عنه بعد أن تبين لك وجه الحكمة في المنع فسلمي حتى يقع اليقين بأن المنع أصلح، ولو ذهبتُ أعد من هذه النعم ما سنح ذكره امتلأت الطروس[1] ولم تنقطع الكتابة وأنت تعلمين أن ما لم أذكره أكثر، وأن ما أومأتُ إلى ذكره لم يشرح، فكيف يحسن بك التعرض لما يكرهه ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (يوسف:٢٣)[2]، فإذا تذكر العبد نعم الله عليه وإحسانه إليه ثبت إيمانه وانخنس شيطانه. . .

---

(١) الطروس: السطور.

(٢) «صيد الخاطر» (ص:١٨٨-١٨٩).

جاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله ـ فقال: يا أبا إسحاق، إني مسرف فأشتهي أن تعلمني شيئًا أنتفع به؟ فقال ـ رحمه الله ـ: إني معلمك خمسة خصال إن قدرت عليها لم تصبك معصية ولا تؤنبك لذة، فقال: هات يا أبا إسحاق.

قال: أما الأولى ـ إذا أردت أن تعصي الله فلا تأكل رزقه، قال: فمن أين آكل، وكل ما في الأرض من رزقه؟ قال: يا هذا أفيحسن بك أن تأكل رزقه وتعصيه؟ قال: لا.

وأما الثانية ـ إذا أردت أن تعصي الله فلا تسكن شيئًا من بلاده، قال الرجل: هذه أعظم من الأولى، ثم قال: إذا كان المشرق والمغرب وما بينهما له فأين أسكن؟!! قال: يا هذا أفيحسن بك أن تأكل رزقه وتسكن بلاده وتعصيه وهو يراك؟!! ويرى ما تجاهره به؟!! قال: لا، هات الثالثة.

قال: إذا أردت أن تعصي الله فاذهب إلى مكان لا يراك فيه، قال الرجل: أين أذهب والله يعلم ما في السموات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى؟! قال: يا هذا أفيحسن بك أن تعصاه وهو يراك؟ قال: لا، هات الرابعة.

قال: إذا جاءك ملك الموت ليقبض روحك فقل: أخرني حتى أتوب توبة نصوحًا وأعمل عملاً لله خالصًا، قال: لا يقبل مني، قال: يا هذا فأنت إذا لم تقدر أن تدفع الموت عن نفسك وتعلم أنه إذا جاءك لم يكن له تأخير فكيف ترجو وجه الخلاص؟! قال: هات الخامسة.

قال: إذا جاءك الزبانية ليأخذوك يوم القيامة إلى النار فلا تذهب معهم قال: لا يدعونني ولا يقبلوا مني، قال: فكيف ترجوا النجاة؟ قال الرجل: حسبي حسبي الله، أنا أستغفر الله وأتوب إليه[1].

---

(١) «شرح المعرفة وبذل النصيحة» تحقيق/ مجدي فتحي السيد (ص: ٢٠-٢١).

رابعًا - نتائج الشهوات

يقول ابن الجوزي - رحمه الله -: من وقف على موجب الحس هلك، ومن تبع العقل سلم، لأن مجرد الحس لا يرى إلا الحاضر وهو الدنيا، وأما العقل فإنه ينظر إلى المخلوقات، فيعلم وجود الخالق ويعلم أنه قد منح وأباح وأطلق وحظر وأخبر أني سائلكم ومبتليكم وليظهر دليل وجودي عندكم بترك ما تشتهون طاعة لي، وإني قد بنيت لكم دارًا غير هذه لإثابة من يطيع وعقوبة من يخالف، ثم لو ترك الحس وما يشتهي مع أغراضه قرب الأمر إنما يزني فيجلد، ويشرب الخمر فيعاقب، ويسرق فيقطع، ويفعل زلة فيفضح بين الخلق، ثم إنا نرى الكثير ممن عمل بمقتضى عقله قد سلمت دنياه وآخرته وميز بين الخلق بالتعظيم وكان عيشه في لذاته غالبًا خيرًا من عيش موافق الهوى، فليعتبر ذو الفهم مما قلت وليعمل بمقتضى الدليل وقد سلم[1].

ويقول ابن القيم - رحمه الله - وقد عدد آثار الذنوب: «قلة التوفيق، وفساد الرأي، وخفاء الحق، وفساد القلب، وخمول الذكر، وإضاعة الوقت، ونفرة الخلق، والوحشة بين العبد وبين ربه، ومنع إجابة الدعاء، وإهانة العدو، وطول الهم والغم، وضنك العيش، وضيق الصدر، والابتلاء بقرناء السوء الذين يفسدون القلب ويضيعون الوقت، وكسف البال تتولد من المعصية والغفلة عن ذكر الله كما يتولد الزرع عن الماء والإحراق عن النار، وأضداد هذه تتولد عن الطاعة»[2].

---

(١) «صيد الخاطر» (ص: ٤١٤-٤١٥).
(٢) «الفوائد» (٤٧).

فمن راقب الله - عزَّ وجلَّ - ونظر إلى العواقب والنتائج ثبت على إيمانه «فمن أصلح سريرته فاح عبير فضله وعبقت القلوب ببشر طيبه».

واسمع إلى ابن عباس رضي الله عنهما وهو يكشف لك عن عواقب الحسنة وعواقب السيئة يقول: «إن الحسنة ضياء في الوجه، ونور في القلب، وقوة في البدن، وسعة في الرزق، وحب في قلوب الخلق، وإن للمعصية سوادًا في الوجه وظلمة في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضًا في قلوب الخلق».

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «ليحذر أحدكم أن تلعنه قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر، ثم قال: أتدرون مم هذا؟ قال: إن العبد ليخلو بمعاصي الله فيلقي الله ببغضه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر.

أخي المسلم.. إذا وجدت من إخوانك جفاء فذلك لذنب أحدثته فتب إلى الله، وإذا وجدت منهم زيادة محبة فذلك لطاعة أحدثتها فاشكر الله عليها.

ويقول ابن الجوزي - رحمه الله -: «الحذر الحذر من المعاصي فإنها سيئة العواقب، والحذر الحذر من الذنوب خصوصًا ذنوب الخلوات؛ فإن المبارزة لله تعالى تسقط العبد من عينه سبحانه، ولا ينال لذة المعاصي إلا دائم الغفلة، فأما المؤمن اليقظان فإنه لا يلتذ بها لأنه عند التذاذه يقف بإيذائه علمه بتحريمها وحذره من عقوبتها، فإن قويت معرفته رأى بعين علمه قرب الناهي - وهو الله - فيتنغص عيشه في حال التذاذه، فإن غَلَبه سكر الهوى كان القلب متنغصًا بهذه المراقبات، فإن قويت فما هي إلا لحظة ثم خزي دائم وندم ملازم وبكاء متواصل وأسف على ما كان من طول الزمان حتى لو تيقن العفو ووقف بإزائه حذر العتاب فأف للذنوب ما أقبح آثارها وأسوأ أخبارها؟ ولا كانت شهوة لا تنال إلا بمقدار قوة الغفلة» اهـ.

خامساً ـ مجاهدة النفس

اعلم ـ علمني الله وإياك ـ أن مما يثبت العبد أمام طوفان الشهوات ويكسر جماحها مجاهدة النفس على ترك الشهوة، فلا ينصر العبد على عدوه إلا إذا جاهده وقاومه، ولا يصل العبد إلى مبتغاه من رضى الله تعالى والاستقامة على الصراط المستقيم إلا بالمجاهدة، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (العنكبوت:٦٩)، يقول إبراهيم الدويش: فإن أردت فلابد من الصبر والتحمل، ففي الحديث: «ما أعطي أحدٌ عطاء هو خير وأوسع من الصبر» (كما في الصحيحين)، وتبقى العزيمة والإصرار والهمة العالية هي المفتاح بيدي كل شاب وبيدي كل فتاة بعد توفيق الله، ولذلك لابد أن نجاهد أنفسنا لابد أن تخاطبها.

ذريني أنل ما لا ينال من العُلى ... فصعب العلا في الصعب والسهل في السهل
تريدين إدراك المعالي رخيصة ... ولابد دون الشهد من إبر النحل

نعم لابد من المرارة خاصة في هذا الزمن لابد من إبر النحل، لا يخلو الطريق من عقبات، لا يخلو من فتن وشهوات وشبهات، فاصبر أخي إنها هي لحظات حتى يقال: فلان مات ثم هي جنات عرضها كعرض الأرض والسموات بخ بخ[1]!!

ويقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: وملاك الأمر كله الرغبة في الله وإرادة وجهه والتقرب إليه بأنواع الوسائل والشوق إلى الوصول إليه وإلى لقائه، فإن لم يكن للعبد همة على ذلك فالرغبة في الجنة ونعيمها وما أعد الله فيها لأوليائه،

---

(١) «الثبات في زمن المتغيرات» (ص:٥٦-٦٠).

فإن لم تكن للعبد همة عالية تطالبه بذلك فخشية النار وما أعد الله فيها لمن عصاه؛ فإن لم تطاوعه نفسه لشيء من ذلك فليعلم أنه خلق للجحيم لا للنعيم ولا يقدر على ذلك بعد قدر الله وتوفيقه إلا بمخالفة هواه، فلم يجعل الله طريقًا إلى الجنة غير مخالفته - أي مخالفة هواه - ولم يجعل للنار طريقًا غير متابعته - أي متابعة هواه -، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات:٣٧-٤١)، وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (الرحمن:٤٦)، قيل: هو العبد يهوى المعصية فيذكر مقام ربه عليه ومقامه بين يديه في الآخرة فيتركها[1].

لا خير فيمن لا يراقب ربه ... عند الهوى ويخافه إيمانا

حجب التقى سبل الهوى فأخو التُّقى ... يخشى إذا وفى المعاد هوانا



(١) «روضة المحبين» (ص:٤١).

الفصل الثاني

صور من الثبات على الإيمان أمام الشهوات

ثبات نبي الله يوسف عليه السلام

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ (يوسف: ٢٢-٢٨)، في هذا المشهد القرآني الذي صور الله تعالى فيه ما حدث للكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ حيث ثبت يوسف عليه السلام على تلك الفتنة واستعان على ذلك بالاعتصام بالله عزَّ وجلَّ ـ معاذ الله ـ ولقد كادت تلك المرأة ليوسف عليه السلام واستعانت على إيقاعه في الحرام بوسائل متعددة.

أولاً ـ راودته هي فلم يبدأ الشر منه ولكن بدأ منها، والمرأة إذا دعت الرجل إلى الحرام غير إذا دعى الرجل المرأة للحرام، لأنها إذا دعت الرجل إلى الحرام أزالت الحواجز النفسية، فالرجل يخشى إذا دعا المرأة إلى الحرام أن ترفض أو

تستنجد بأهلها لكن إذا المرأة دعته للحرام . . . ولذلك قال في السبعة الذين يظلهم الله في ظله : **«ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال»**[1] .

فنعد الآن ما هي وسائل الجذب؟

أولاً ـ راودته .

ثانيًا ـ هي في بيتها أي ليس غريبًا يشك فيه إذا دخل البيت، هو يدخل البيت عاديًا .

ثالثًا ـ أنها أغلقت الأبواب وغاب الرقيب، وهذا أدعى للوقوع في الحرام .

رابعًا ـ أنه كان شابًا وداعي الزنى عند الشباب أكبر .

خامسًا ـ أنها كانت سيدته، لها عليه الأمر والنهي والطاعة .

سادسًا ـ أنه كان عبدًا وداعي الزنى عند العبد أكبر من الحر، لأن الحر يخشى الفضيحة أما العبد فينظر إليه من مستوى أدنى .

سابعًا ـ أنها شجعته على ذلك وقالت : هيت لك . . تعال هيا .

ثامنًا ـ أن الرجل كان غريبًا عن البلد، والغريب ممكن لا يخشى الفضيحة مثل ابن البلد ويوسف كان غريبًا .

تاسعًا ـ أن المرأة كانت جميلة، وداعي الزنى بالجميلة أكبر .

عاشرًا ـ أن المرأة كانت ذات سلطان تدافع عنه ـ يعني عن حبيبها ـ فيكون داعي الزنى أكبر .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة .

الحادي عشر ـ أن زوجها ما عنده غيره، فهو بالرغم من علمه بما حصل إلا أنه أبقى الحبل على الغارب، ما أخرج يوسف عن زوجته، وأبقى الأمر كما هو عليه فقط «أعرض عن هذا . . استغفر لذنبك» واكتفى بذلك!!

الثاني عشر ـ أنها استعانت عليه بكيد النسوة.

الثالث عشر ـ أنها هددته بالسجن.

إذًا هناك أسباب كثيرة جدًا داعية إلى أن يزني، ومع ذلك صمد فلم يزن وبالتالي فإنه بلغ عند الله شأنًا عظيمًا[1].

حاله عليه السلام:

إذا ما هممنا صدنا وازع التُّقى	**فولى على أعقابه الهمُّ خاسئًا**

وهكذا ضرب نبيُّ الله أعظمَ مثالاً للثبات أمام الشهوات، فماذا كان جزائه عليه السلام؟

يقول سبحانه: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف:٥٦).

قال ابن جرير: يتخذ منها منزلاً حيث يشاء بعد ضيق الحبس والأسر.

وقال سيد قطب: على هذا النحو مكنا ليوسف في الأرض وثبتنا قدميه يتخذ منها المنزل الذي يريد والمكانة التي يريد مقابل الجب وما فيه من مخاوف، والسجن وما فيه من قيود.. وهكذا عوض الله يوسف عن المحنة

---

(١) «١٠٠ فائدة من سورة يوسف» (ص:١٤-١٦).

تلك المكانة في الأرض وهذه البشرى في الآخرة جزاءً وفاقًا على الإيمان والصبر والإحسان[1].

ويقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه ومن جنسه، لما احتمل يوسف الصدِّيق ضيق السجن شكر له ذلك بأن مكن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء. اهـ.

جريج

وهيا لنرى الثبات أمام الشهوات في قصة عابد من بني إسرائيل ذكرها لنا النبي ﷺ كدرس من دروس التربية بالقصة، فقد أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كان جريج عابدًا فاتخذ صومعة فكان فيها فأتته أمه وهو يصلي فقالت: يا جريج، فقال: أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فانصرفت، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي فقالت: يا جريج، فقال: يا رب أُمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فقالت: اللهم لا تمته حتى ينظر إلى وجوه المومسات، فتذكر بنو إسرائيل جريجًا وعبادته وكانت امرأة بغي يُتمثل بحسنها فقالت: إن شئتم لأفتننه، فتعرضت له فلم يلتفت إليها، فأتت راعيًا كان يأوي إلى صومعته فأمكنته من نفسها فوقع عليها فحملت، فلما ولدت قالت: هو من جريج، فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم؟! قالوا: زنيت بهذه البغي فولدت منك، قال: أين الصبي؟ فجاؤا به، فقال: دعوني حتى أصلي، فصلى فلما انصرف أُتي بالصبي فطعنه في بطنه وقال: يا غلام من أبوك؟ قال: فلان الراعي... فاقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهب، قال: أعيدوها من طين كما كانت، ففعلوا**».

(١) «ظلال القرآن» (جـ٤/ ٢١٤).

الربيع بن خثيم ـ رحمه الله ـ

الربيع بن خثيم من كبار التابعين وقد صحب عبد الله بن مسعود ﷺ وعاش معه سنين طويلة حتى أن ابن مسعود حين رأى ورعه وتقواه قال له: يا أبا يزيد لو رآك رسول الله ﷺ لأحبك.. واسمع يرعاك الله إلى شدة حياء الربيع.

عن أبي عبيدة قال: وكان الربيع إذا جاء إلى باب عبد الله يقول للجارية ـ يعني ابن مسعود ـ: مَنْ بالباب؟ فتقول الجارية: ذاك الشيخ الأعمى، وعن علقمة بن مرثد قال: انتهى الزهد إلى ثمانية من التابعين ومنهم الربيع بن خثيم.

وعن مالك بن دينار قال: قالت ابنة الربيع بن خثيم: يا أبتاه، إني أرى الناس ينامون ولا تنام؟ قال: إن جهنم لا تدعني أنام.

ذاك هو الربيع بن خثيم إيمانه في قلبه كالجبل لا يزول ولا يتأثر بمغريات الحياة وذلك لأن الربيع علم الداء وعلم الدواء، فعن الربيع بن خثيم أنه قال لأصحابه: أتدرون ما الداء والدواء والشفاء؟ قالوا: لا، قال: الداء الذنوب، والدواء الاستغفار، والشفاء أن تتوب فلا تعود.

*** وهيا لنرى كيف ثبت الربيع أمام الشهوة:**

كان يعيش في مدينة التابعي الجليل قوم ليسوا كأي ناس ولكنهم من شياطين الإنس بيتوا في نفوسهم أمرًا شريرًا بحق الربيع وأقدموا على تنفيذه.

*** ما هو هذا الأمر الشرير؟!**

ذهب هؤلاء الخبثاء إلى امرأة كانت آية في الجمال والحسن وطلبوا منها أن تفتن الربيع بأن تقبله ولها ألف درهم إن هي فعلت ذلك، ووافقت المرأة بكل سعادة وقالت لهم: لكم عليَّ أكثر من القبلة، وقامت هذه الفاتنة بلبس أجمل ما عندها من الثياب وأكثرها تكشفًا وتعريًا وتطيبت بأفضل ما لديها من عطور وروائح ذكية.

وحين خرج الربيع من المسجد وإذا بهذه المرأة وهي تنتظر في زاوية طريقه وقد تكشفت له وظهر حسنها وجمالها الذي يخلب الأذهان ويأسر القلوب وفي هذه اللحظة تذكر الربيع عقاب الله لمن ارتكب مثل هذه المعصية فارتفع بنفسه وبروحه عن أن يأتي مثل ذلك. . وأخذت المرأة تقترب منه ليرى هذا الجمال الفاتن ويشم هذه الروائح العطرة وهي تقترب وتتعرى له، قال الربيع بكل عزة وعفة: كيف بك لو قد نزلت بك الحمى فغيرت ما أرى من لونك وبهجتك؟ أم كيف بك لو نزل بك ملك الموت فقطع منك حبل الوتين؟. . . أم كيف بك لو سألك منكر ونكير؟! أم كيف بك. . .؟؟

وبعد هذه الموعظة الزاجرة وهذه الكلمات الربانية التي تزحزح الجبال وتحطم الصخور، ترى ماذا فعلت هذه المرأة الفاتنة؟؟؟

هل زادت في تعريها وتكشفها لتفتن الربيع وتحصل على الألف درهم؟ أم ماذا حدث؟

صرخت المرأة صرخة وسقطت مغشيًا عليها وبعد أن فاقت المرأة تابت لله توبة نصوحًا وأخذت تعبد الله حق العبادة تقوم الليل وتصوم النهار.

إنها صورة من أروع صور الثبات على الإيمان أمام أعظم الفتن إنها فتنة الشهوة، ولكن ما الذي جعل الربيع يقف أمام تلك الفتنة بكل ثبات وإيمان؛ إنها مراقبة الله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ (الحديد: ٤).

تعليق:

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: والمقصود أن الله سبحانه فتن أصحاب الشهوات بالصور الجميلة، وفتن أولئك بهم فكل من النوعين فتنة للآخر، فمن صبر منهم على تلك الفتنة نجا مما هو أعظم منها، ومن أصابته تلك الفتنة سقط

فيما هو شر منها؛ فإن تدارك ذلك بالتوبة النصوح وإلا فبسبيل من هلك، ولهذا قال النبي ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضر من النساء على الرجال»[(١)]، أو كما قال: فالعبد في هذه الدار مفتون بشهواته ونفسه الأمارة وشيطانه المغوي المزين وقرنائه وما يراه ويشاهده مما يعجز صبره عنه، ويتفق مع ذلك ضعف الإيمان واليقين وضعف القلب ومرارة الصبر وذوق حلاوة العاجل وميل النفس إلى زهرة الحياة وكون العوض مؤجلاً في دار أخرى غير هذه الدار التي خلق فيها وفيها نشأ، فهو مكلف بأن يترك شهوته الحاضرة المشاهدة لغيب طلب منه الإيمان به.

فوالله لولا الله يسعد عبده ... بتوفيقه والله بالعبد أرحم
لما ثبت الإيمان يومًا بقلبه ... على هذه العلات والأمر أعظم
ولا طاوعته النفس في ترك شهوة ... مخافة نار جمرها يتضرم
ولا خاف يومًا من مقام إلهه ... عليه بحكم القسط إذ ليس يظلم[(٢)]

سليمان بن يسار وعطاء بن يسار

قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: عن مصعب بن عثمان قال: كان سليمان بن يسار من أحسن الناس وجهًا، فدخلت عليه امرأة فسألته نفسه فامتنع عليها، فقالت له: ادن .. فخرج هاربًا عن منزله وتركها فيه، قال سليمان: فرأيت يوسف ﷺ بعد ذلك فيما يرى النائم وكأني أقول له: أنت يوسف؟ قال: نعم أنا يوسف الذي هممت وأنت سليمان الذي لم تهم، وقد رويت هذه القصة عن عطاء بن يسار أخي سليمان والله أعلم.

---

(١) رواه البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠).
(٢) «في إغاثة اللهفان» (ص: ٥١٤).

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: خرج عطاء بن يسار وسليمان ابن يسار حاجين من المدينة ومعهما أصحاب لهم حتى إذا كانوا بالأبواء نزلوا منزلاً فانطلق سليمان وأصحابه لبعض حاجتهم، وبقي عطاء بن يسار قائمًا في المنزل يصلي.

قال: فدخلت عليه امرأة من الأعراب جميلة، فلما رآها عطاء ظن أن لها حاجة فأوجز في صلاته ثم قال: ألك حاجة؟ قالت: نعم، قال: ما هي؟ قالت: قم فأصب مني فإني قد ودقت ولا بعل لي، فقال: إليك عني لا تحرقيني ونفسك بالنار، فجعلت تراوده عن نفسه ويأبى إلا ما يريد، قال: فعجل عطاء يبكي، فبينما هو يبكي ويقول: ويحك إليك عني، قال: اشتد بكاؤه فلما نظرت المرأة إليه وما داخله من البكاء والجزع بكيت المرأة لبكائه، قال: فجعل يبكي والمرأة تبكي فبينما هو كذلك إذ جاء سليمان من حاجته فلما نظر إلى عطاء يبكي والمرأة تبكي بكى في ناحية البيت لبكائهما لا يدري ما أبكاهما، وجعل أصحابهما يأتون رجلاً رجلاً كلما أتى رجل فرآهم يبكون جلس يبكي لبكائهم لا يسألهم عن أمرهم حتى كثر البكاء وعلا الصوت فلما رأت الأعرابية ذلك قامت فخرجت، قال: فقام القوم فدخلوا. .

فلبث سليمان بعد ذلك وهو لا يسأل أخاه عن قصة المرأة إجلالاً له وهيبة، قال: وكان أسن منه قال: ثم إنهما قدما مصر لبعض حاجتهما فلبثا بها ما شاء الله، فبينما عطاء ذات ليلة نائم إذ استيقظ وهو يبكي، فقال سليمان: ما يبكيك يا أخي؟ قال: فاشتد بكاؤه قال: ما يبكيك يا أخي؟ قال: رؤيا رأيتها الليلة قال: وما هي؟ قال: لا تخبر بها أحدًا ما دمت حيًا، رأيت يوسف النبي عليه السلام في النوم فجئت أنظر إليه فيمن ينظر إليه فلما رأيت حسنه بكيت، فنظر إليَّ في

الناس فقال: ما يبكيك أيها الرجل؟ فقلت: بأبي أنت وأمي يا نبي الله ذكرتك وامرأة العزيز ما ابتليت به من أمرها وما لقيت من السجن وفرقة يعقوب فبكيت من ذلك وجعلت أتعجب منه قال: فهلا تعجبت من صاحب المرأة البدوية بالأبواء؟ فعرفت الذي أراد فبكيت واستيقظت باكيًا.

قال سليمان: أي أخي وما كان حال تلك المرأة؟ فقص عليه عطاء القصة فما أخبر بها سليمان أحدًا حتى مات فحدث بها بعده امرأة من أهله، قال: وما شاع هذا الحديث بالمدينة إلا بعد موت سليمان بن يسار رحمه الله[1].

ثبات السرى بن دينار - رحمه الله -

قال محمد بن إسحاق: نزل السرى بن دينار في درب بمصر وكانت فيه امرأة جميلة فتنت الناس بجمالها فعلمت به المرأة فقالت: لأفتننَّه، فلما دخلت من باب الدار تكشفت وأظهرت نفسها فقال: ما لك؟ فقالت: هل لك في فراش وطي وعيش رخي؟ فأقبل عليها وهو يقول:

وكم ذي معاصي نال منهن لذة ... ومات فخلا لها وذاق الدواهيا
تصرم لذات المعاصي وتنقضي ... وتبقى تباعات المعاصي كما هيا
فيا سوءتا والله راءٍ وسامع ... لعبد بعين الله يغشى المعاصيا[2]

عبيد بن عمير

ذكر أبو الفرج وغيره أن امرأة جميلة كانت بمكة كان لها زوج فنظرت يومًا إلى وجهها في المرآة فقالت لزوجها: أترى أحدًا يرى هذا الوجه ولا يفتن به، قال: نعم، قالت: مَن؟ قال: عبيد بن عمير، قالت: فآذن لي فيه فلأفتننَّه،

---

(١) «صفة الصفوة» (جـ١، ص:٢٩١-٢٩٢).
(٢) «ألف قصة وقصة» (ص:٥٤١-٥٤٢).

قال: قد أذنت لك، قال: فأتته كالمستفتية، فخلا معها في ناحية المسجد الحرام فأسفرت عن وجه مثل فلقة القمر، فقال لها: يا أمة الله استتري، فقالت: إني قد فتنت بك.

قال: إني سائلك عن شيء فإن أنت صدقتني نظرت في أمرك، قالت: لا تسألني عن شيء إلا صدقتك، قال: أخبريني لو أن ملك الموت أتاك ليقبض روحك أكان يسرك أن أقضي لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا، قال: قد صدقت.

قال: فلو دخلت في قبرك وأجلست للمساءلة أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: قد صدقت.

قال: لو أن الناس أُعطوا كتبهم ولا تدرين أتأخذين كتابك بيمينك أم بشمالك، أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: قد صدقت.

قال: فلو أراد المرر على الصراط ولا تدرين تنجين أو لا تنجين أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: قد صدقت.

قال: فلو جيء بالميزان وجيء بك فلا تدرين أيخف ميزانك أم يثقل، أكان يسرك أني قضيتها لك؟، قالت: اللهم لا، قال: قد صدقت.

قال: فلو وقفت بين يدي الله للمساءلة، أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: قد صدقت.

قال: اتقي الله فقد أنعم الله عليك وأحسن إليك، قال: فرجعت إلى زوجها، فقال: ما صنعت؟ قالت: أنت بطال ونحن بطالون، فأقبلت على الصلاة والصوم والعبادة، فكان زوجها يقول: مالي ولعبيد بن عمير أفسد علي امرأتي كانت في كل ليلة عروسًا فصيرها راهبة[١].

---

(١) «ألف قصة وقصة» (٥٥٢-٥٥٣)، و«كتاب ذم الهوى» (٢١٠-٢١١).

منزلة التائبين

عن بكر بن عبد الله المزني قال: أن قصابًا ولع بجارية لبعض جيرانه فأرسلها أهلها في حاجة لهم إلى قرية أخرى فتبعها فراودها عن نفسها، فقالت: لا تفعل، لأنا أشد حبًا لك منك لي ولكني أخاف الله، قال: فأنت تخافيه وأنا لا أخافه، فرجع تائبًا، فأصابه العطش حتى كاد ينقطع عنقه فإذا هو برسول لبعض أنبياء بني إسرائيل فسأله قال: ما لك؟ فال: العطش، قال: تعال حتى ندعو الله حتى تظلنا سحابة حتى ندخل القرية، قال: ما لي من عمل، قال: فأنا أدعو وأمِّن أنت، قال: فدعا الرسول وأمَّن هو فأظلتهم سحابة حتى انتهوا إلى القرية فأخذ القصاب إلى مكانه ومالت السحابة فمالت عليه، فرجع الرسول، فقال: زعمت أنه ليس لك عمل وأنا دعوت وأنت أمنت فأظلتنا سحابة ثم تبعتك لتخبرني ما أمرك فأخبره فقال الرسول: «التائب إلى الله بمكان ليس أحد من الناس بمكانه»[1].

ثبات أبي بكر المسكي -رحمه الله-

هذه الصورة التي نقدمها لشاب نشأ على الخوف من الله تعالى ومراقبته في السر والعلانية، امتلأ قلبه بالإيمان حتى بدت عليه أنوار الإيمان، إنها صورة من صور الاعتصام بالله والتضرع إليه عند الشدائد، وصدق رسول الله ﷺ: **«رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله»**[2].

---

(١) «ألف قصة وقصة» (ص: ٤٠٩).

(٢) حديث صحيح: رواه البخاري (٦٦٠)، (١٤٢٣)، (٦٤٧٩)، (٦٨٠٦)، ومسلم (١٠٣١).

إنه أبو بكر المسكي، قيل له: إنَّ نشم منك رائحة المسك على الدوام فما سببه؟!! فقال: والله لي سنون عديدة لم أستعمل المسك ولكن سبب ذلك أن امرأة احتالت علي حتى ادخلتني دارها وأغلقت دوني الأبواب وروادتني عن نفسي فتحيرت في أمري فضاقت بي الحيل، فقلت لها: إن لي حاجة إلى الطهارة فأمرت جارية لها أن تمضي بي إلى بيت الراحة ففعلت، فلما دخلت بيت الراحة أخذت العذرة وألقيتها على جميع جسمي ثم رجعت إليها وأنا على تلك الحالة، فلما رأتني دهشت ثم أمرت بإخراجي فمضيت واغتسلت، فلما كان تلك الليلة رأيت في المنام قائلاً يقول لي: فعلت ما لم يفعله أحد غيرك لأطيبن ريحك في الدنيا والآخرة، فأصبحت والمسك يفوح مني واستمر ذلك إلى الآن[1]، إن ذلك الشاب خاف أن يدنس طهارته وعفته وإيمانه ولكنه وضع العذرة على جسده لأن العذرة يزول أثرها بالماء، أما الإيمان إذا أصابه أدنى شيء أثر فيه، فكان جزاؤه أن أظهر الله عليه كرامة من كراماته التي يزين بها أحبابه.

الموت ولا معصية ربي

قال رجل تاجر: كنت ذات ليلة في منزل فقرع الباب قارع، وإذا أنا بشابة جميلة تُخجل البدر وكأنها الشمس في وسط النهار فشكت إلي جوعها فحادثتها ثم راودتها عن نفسها فقالت: الموت ولا معصية ربي، ثم رجعت من حيث أتت وبعد أيام عادت وتوسلت إليَّ فقلت كما قلت، فبكت ثم دخلت البيت وقد أشرفت على الهلاك ثم قالت: تطعمني لوجه الله قلت: لا . . إلا أن تمكنيني من نفسك، فقالت: الموت خير لي من عذاب الله، فسمعتها تقول وهي منصرفة:

---

(١) «المواعظ والمجالس» لابن الجوزي (ص: ٢٢٤).

أيا واحداً إحسانه شمل الخلقا بسمعك ما أشكو بعينك ما ألقى
لقد صدمتني شدة وخصاصة ونازلني ما بعضه يمنع النطقا
كأني ظمآن ترى الماء عينه فلا غلة تروى ولا شربة تسقى
تنازعني نفسي إلى نيل أكلة لذاتها تفنى وغُصتها تبقى
أأعصيك بعد الفضل والجود والهدى وكيف بالطاعات أستجلب الرزقا
سأتلفها في نيل حبك سيدي عساي بها أستوجب القرب والعتقا

قال: فجزعت لما سمعت من قولها ودخل قلبي الإيمان وقلت لها: عودي وكلي وخذي من المال ما شئت لله، فقالت: اللهم كما أنرت قلبه وهديت لُبه فأجب دعاءه ولا ترده خائبًا، فكان ما دعت به ثم تزوجها[1].

شمعة وعفيف

يقول النبي ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله»؛ منهم «شاب نشأ في عبادة ربه»[2]، هذا القول من النبي ﷺ يصدق بكل المعايير على بطل قصتنا وعفيف روايتنا، فقد تربى هذا الشاب على معاني الصلاح والاستقامة منذ نعومة أظفاره وذلك بفضل الله أولاً ثم تربية والديه له التربية الطيبة ونشأ الشاب في عبادة الله وكبر حتى أصبح من الضروري أن يبتعد عن هذا الكنف الطيب حيث استكمال دراسته... سافر الفتى بعيدًا عن والديه واستقر في سكن صغير أحبه أهل الحي الذي يسكنه وفرحوا بقربه فكان مثالاً للأخلاق الفاضلة، ومما زاد من حبه في نفوسهم خدمته لهم وطيب معشره وكأنه يريد الخير الذي يتحدث عنه

---

(١) كتاب «٢٨٠ قصة» (١٧٦).

(٢) متفق عليه.

النبي ﷺ: «**خير الناس أنفعهم للناس**»[1]، وكثيرًا ما يتحدث الناس عنه مدحًا وثناءًا على أخلاقه وصفاته الحسنة، وكان في الحي فتاة مراهقة جميلة تستمع إلى أحاديث الناس عنه فأعجبت به وباتت تسترق النظرات إليه... وتتحين الفرص للتمتع بمشاهدته وتتمنى أن يجلس معها وتحادثه وتنظر إليه عن قرب، وأخذت الفتاة تخطط لكي ترى الفتى ولكي تكشف له عما تكنه في صدرها وفي يوم من الأيام حين كان الفتى يسير في طريق بالقرب من بيت الفتاة نادت عليه فنظر إليها ثم أنزل نظره ثم دعته إلى الدخول لدارها قائلة له: إن لدينا أشياء لا نستطيع حملها فهلا ساعدتنا؟

ولأن الفتى معروف بحبه للخير وحرصه على مساعدة الناس لم يمانع ولكنه قال لها: أخبري من في البيت أنني قادم وتوارى قليلاً، دخل الفتى وحمل ما أشارت له عليه وخرج بكل سرعة، فتحسرت الفتاة على أنه لم يمكث كثيرًا بالقرب منها، هذه الرؤية العابرة لم تشبع ما في الفتاة فكانت تريد أكثر من ذلك، وفي مساء بارد والسماء تمطر بغزارة والشاب جالس في منزله يردد: اللهم أغثنا وهو يجلس بالقرب من شمعة يتصفح كتابًا وإذا بالباب يُطرق بشدة فينصت الشاب وإذا بالطرقات تزداد فيذهب الفتى وهو متعجب: مَنْ عساه يكون هذا الزائر في الليل الممطر؟!

وفتح الباب وإذا بالفتاة نفسها تقذف بنفسها على الأرض فتسقط تحت الفتى وهو لا يدرك ما الأمر! إلا أن الفتاة تحدثت بعد لحظات وقالت: جئت إليك لكي أحتمي في دارك من البرد والمطر، ولازالت الفتاة على الأرض وقد هال الفتى ما شاهد من جمالها وهي ملقاة على الأرض، ولكنه تذكر خطورة موقفه

---

(١) حديث صححه الألباني - رحمه الله - في «السلسلة الصحيحة» برقم (٣٥٩٠).

وهذه الفتنة العظيمة التي يعيشها، وزادت ضربات قلبه بسرعة واشتد شهيقه وزفيره فالتفت الشاب وإذا به يشاهد شمعته التي يستضيء بها فتوجه بكل سرعة إليها ووضع أصابعه عليها وهو لا يحس ورائحة شواء لحمه تفوح، والفتاة تنظر وهي في أقصى حالات الهلع مما تشاهده، وبعد فترة من الزمن صرخ الفتى من شدة حرارة النار، وركض خارج البيت وترك الفتاة في داره، وبعد أن انقضى أكثر الليل وهو في خارج منزله عاد فلم يجد الفتاة، فحمد الله على نجاته من هذا الموقف وهو يقول في نفسه: فإن لم أستطع الصبر على حرارة شمعة صغيرة فكيف أصبر على نار وقودها الناس والحجارة؟!! لا أستطيع، حين خرجت الفتاة إلى بيت أهلها ازداد حُبُّ الفتى في نفسها وقد علمت أنه لا يريدها بالحرام فكيف الوصول إليه؟ لابد أن أتزوجه . . لابد.

تحدثت الفتاة إلى والدها عن الشاب وأنها تريد الزواج منه ولم يكن الوالد يتمنى أكثر من أن يزوج ابنته من هذا الفتى الصالح، فعلاً في الصباح توجه الأب إلى الفتى الصالح وقال: يا بني، إني أُريد أن أزوجك ابنتي فوافق الفتى وحينها تذكر الشاب أن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، فحين ترك الحرام خوفًا من الله هيأه الله إليه في الحلال[1].

ثبات عبد العزيز الهندي

وقعت هذه الحادثة التي تشع عفافًا ومخافة الله تعالى في مصر، وكانت مصر في ذلك الزمن مستعمرة بريطانية، أما صاحب قصتنا وبطلها فهو شاب فقير ماديًا ولكنه كان وافر الغنى روحيًا وإيمانيًا وهو عبد العزيز الهندي، الذي كان يعمل ترزيًا في المعسكر البريطاني، ذات يوم طلب للعمل خارج معسكره

(١) كتاب «صور من العفة».

وكانت التي دعته زوجة أحد كبار الضباط الإنجليز، وذهب عبد العزيز إلى منزلها وطرق الباب ففتحت له الباب ودخل البيت ليصلح لهم ما طلبوه لشأنه ولكنه حينما دخل رأى المرأة تنظر إليه نظرات مريبة، وبعد قليل أفصحت له عما في نفسها الشيطانية وقالت له بكل وقاحة وجرأة أنها تريد أن تعمل الفاحشة معه.

فبهت عبد العزيز حين ذلك فأخذت تغريه وترغبه بالهدايا وجزيل الأموال، فأخذ هو يخوفها ويزجرها ويذكرها بأن العمل منافي للخلق ولا تقبله أي شريعة سماوية، ولكن هذه المرأة تلبسها الشيطان تصرُّ على أمرها، وعندما رأت أنه لن ينفذ ما أرادت بسهولة أخذت تهدده وهي تقول له: إن لم تفعل ما طلبته فإنني سأقتلك وسأقول: إنه هجم عليَّ في منزلي، وحار عبد العزيز في أمره ماذا يفعل وفي لحظة والمسدس مصوب على صدره إذا به يقول بكل يقين وضراعة وبأعلى صوته: «لا إله إلا الله.. محمد رسول الله»، وحينما سمعت المرأة هذه الصيحة المفاجئة سقط المسدس من يدها وأصابها ذُعر شديد لم تجد بعده إلا أن تصرخ في وجه عبد العزيز بأن يخرج بسرعة وأخذت تدفعه بيدها إلى الباب وهي في أقصى حالات الذعر والخوف.

وعبد العزيز لم يكن يريد أكثر من ذلك فأخذ يجري خارج المنزل وهو في أقصى حالات السعادة على ما ثبته الله عليه ومما حماه عنه[1].

(«مذكرات الدعوة والداعية» للإمام حسن البنا، ص: ٧٦)

وهل نام الله؟!

تعلق قلب رجل بامرأة بدوية وقد ذهبت ذات ليلة إلى حاجة لها فتبعها الرجل، فلما خلا بها في البادية والناس نيام حولهما راودها عن نفسها، فقالت

(١) «صور العفة».

له: انظر أنام الناس جميعًا؟ ففرح الرجل وظن أنها قد أجابته إلى ما ابتغى فقام وطاف حول مضارب الحي فإذا الناس نيام، فرجع مسرورًا وأخبرها بخلو المكان من النيام.

فقالت: ما تقول في الله تبارك وتعالى؟ أنام هو في هذه الساعة؟! قال الرجل: إن الله لا ينام ولا تأخذه سِنَةٌ، فقالت المرأة: إن الذي لم ينم أولى أن يُخاف.. فاتعظ الرجل وتركها وتاب خوفًا من الله تعالى، ولما مات رئي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي لخوفي وتوبتي إليه[1].

إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم

كان بالكوفة فتى جميل الوجه شديد التعبد والاجتهاد، وكان أحد الزهاد فنزل في جوار قوم من النخع فنظر إلى جارية منهم جميلة فهواها، وهام بها عقله ونزل بها مثل الذي نزل به، فأرسل يخطبها من أبيها فأخبره أبوها أنها مسماة لابن عمها، واشتد عليهما ما يقاسيان من ألم الهوى فأرسلت إليه الجارية، قد بلغني شدة محبتك لي وقد اشتد بلائي بك لذلك ومع وجدي بك فإن شئت زرتك وإن شئت سهلت لك أن تأتيني إلى منزلي، فقال للرسول: لا واحدة من هاتين الخصلتين ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الأنعام: ١٥)، أخاف نارًا لا يخبو سعيرها ولا يخمد لهيبها، فلما انصرف الرسول إليها فأبلغها ما قال، قالت: وأراه مع هذا زاهدًا يخاف الله تعالى، والله ما أحق بهذا من أحد وأن العباد فيه لمشتركين. ثم تابت إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ[2].

---

(١) «ألف قصة وقصة» (ص: ٤٥٢-٤٥٣).

(٢) «ألف قصة وقصة» (ص: ٥٣٩-٥٤٠).

جعلتها ذخيرة عند الله

كان لسليمان بن عبد الملك مؤذن في القصر يؤذنه بأوقات الصلاة فجاءته جارية له جميلة فقالت: يا أمير المؤمنين إن المؤذن إذا مررت به لم يقلع ببصره عني... وكان سليمان من أشد الناس غيرة، فكاد أن يأمر بعقوبة المؤذن ثم قال للجارية: تزيني وتطيبي وامضي إليه فقولي: إنه لم يخف علي نظرك إليَّ وبقلبي أكثر مما بقلبك مني، فإن تك لك حاجة فقد أمكنتك مني ما تريد وهذا أمير المؤمنين غافل، فإن لم تبادر فلن أرجع إليك أبدًا، فمضت إلى المؤذن وقالت له ما قال لها، فرفع المؤذن بصره إلى السماء وقال: يا جليل أين سترك الجميل؟... ثم قال لها: اذهبي ولا ترجعي فعسى الملتقى أن يكون عند من لا يخيب الظن... فرجعت الجارية إلى سليمان فأخبرته الخبر فأرسل إليه فلما دخل قال له الحاجب ـ أمام الخليفة ـ: إن أمير المؤمنين قد رأى أن يهب لك فلانة ويحمل إليك معها خمسين ألف درهم تنفقها عليها... فقال المؤذن: هيهات يا أمير المؤمنين، إني والله ذبحت طمعي منها أول لحظة رأيتها وجعلتها ذخيرة لي عند الله وأنا أستحي أن أسترجع شيئًا ادخرته عنده، فجهد به سليمان أن يأخذ المال والجارية فلم يفعل فكان يعجب منه ولا يزال يحدث أصحابه بحديثه[1].

عمر وشبيه يوسف عليه السلام

حينما راودت زوجة العزيز سيدنا يوسف عليه السلام وتزينت وتعطرت، وهددت ورغبت، لكي يفعل معها الفاحشة، صرخ في وجهها وفي وجه الفاحشة: معاذ الله.. معاذ الله أن أهوى في قاع الرذيلة.. معاذ الله أن أخالف تعاليم ربي.. معاذ الله أن أفعل ما تريدين.. حتى ولو سُجنت وظُلمت.

---

(١) مجلة «الوعي الإسلامي» (عدد: ٢٥٦، شعبان ١٤٢٤) (ص: ٩٤).

صرخة يوسف تلك كانت تتردد بين الحين والآخر في نفوس العفيفين، وعفيف قصتنا هذه الذي وصلته صرخة يوسف فعمل وتمسك بها.. هو فتى عاش في القرون الأولى حيث الخير والخيِّرين، في خلافة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان عمر يُعجب بهذا الفتى، لما يرى من صلاحه وحرصه على الخير، حتى أن عمر كان يتفقده إذا غاب، ويسأل عنه ولكن.. وكما قال النبي ﷺ: «إذا أحب الله عبداً ابتلاه»[1].

ابتلي هذا الفتى بحكاية عجيبة؛ إن دلت فإنما تدل على مدى رسوخ الإيمان في قلبه ومدى ثباته على إيمانه لأنه لم يتربى على الأفلام ولا المسلسلات، وإنما تربى على مراقبة رب الأرض والسموات.

الحكاية: كان هذا الفتى حسن الهيئة، جميل المحيا، فعشقته فتاة من بنات المدينة، كانت تحرص على رؤيته والتمتع بالنظر إليه، وهو لا يلتفت لذلك، ولا يهتم وذات يوم وقد زاد الوله والهيام في نفس تلك الفتاة، أخذت تُفشي ما خبأته منذ زمن إلى نساءٍ كانت تجالسهن، وأخذت تشتكي لهن من صده وعدم اكتراثه بها، وإنها تريد رؤيته عن قرب والاستئناس بمجالسته، فقالت لها امرأة ممن يجلسن عندها: أنا أحتال في إدخاله عليك في البيت، عندها فرحت الفتاة، وسُرت أيما سرور بهذه المبادرة التي ستحقق حلمها.

خرجت المرأة تحاول اصطياد الفتى والاحتيال عليه وإدخاله على الفتاة.. وقعدت في الطريق الذي يمر به وحين رأته أخذت تتظاهر بأنها ضعيفة مسكينة،

---

(١) الحديث ضعيف: أخرجه ابن أبي الدنيا عن أنس بلفظ: «إذا احب الله عبداً او اراد ان يصافيه صب عليه البلاء صباً...» الحديث.
- انظر «ضعيف المتجر الرابح» الحديث رقم (٧١٠)، مجلد الضعيف، دار ابن حزم.

تريد منه المساعدة، في حلب شاتها، وكان أهل ذلك العصر أهل خير يحبون المعروف وفعله وكما قال النبي ﷺ : «**لا تحقرن من المعروف شيئًا**»[١]، فمهما كان الأمر بسيطًا وتافهًا إلا أنهم كانوا يحرصون عليه، بعكس عصرنا هذا الذي أصبح شعار كثير من الناس «نفسي نفسي وليهلك الجميع» ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وحتى لا نبتعد كثيرًا عن حكايتنا نعود لنشاهد الفتى يسير مع المرأة لكي يساعدها فيدخل الدار حينذاك، قالت له المرأة: اجلس حتى آتيك بالشاة، وبعد دقائق لم تأت بالشاة وإنما جاءت برفقة فتاة كأنها القمر، حين رأى الفتى تلك المفاجأة من الحسن والجمال ولكنه تذكر أن النظرة الأولى له والثانية عليه فقفز من مكانه وابتعد عنها وهي تمسك به وتراوده عن نفسه وهو يصد عنها ويريد الخلاص من هذا المكر وهذه الطامة التي وقع فيها، وأخذ الفتى يصرخ في وجهها معاذ الله . . معاذ الله، وهو يقول: اتقي الله يا امرأة، والمرأة لم تكن تلتفت إلى ما يردده وإنما تريد أن يُلبي رغبتها، وحين رأته لا يفيد فيه الرجاء ولا الود انقلب ذلك الحب إلى غضب وكره وأخذت تصرخ وتولول إلى أن اجتمع الناس فشاهدوا الفتى في بيتها حينما افترت عليه بما يفيد أنه يريد أن يهتك عرضها، وقد قفز إلى البيت قاصدًا ذلك، لم يسأل الناس الفتى عن شيء وإنما أخذوا يضربونه ويركلونه، وبعد أن أصابه ما أصابه أوثقوه بالحبال وذهبوا به إلى الخليفة الفاروق وحين رآه عمر بن الخطاب على تلك الحال غضب منهم لما كان يعرف من صلاح الفتى وتقواه.

وقال عمر: لماذا أوثقتم الفتى؟ ولم كل هذا؟!

---

(١) رواه مسلم في «باب البر والصلة» (٢٦٢٦).

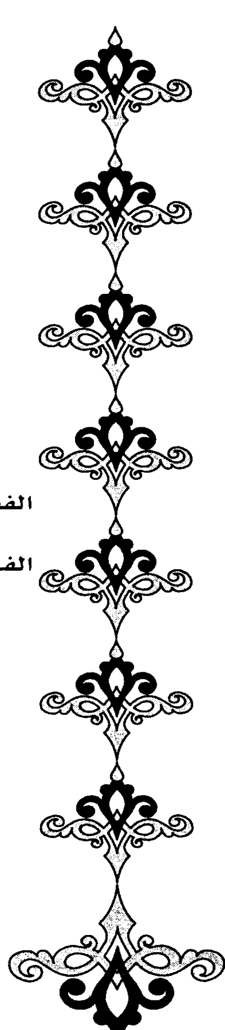
وتوحدت إجابة القوم على أن الفتى كان يراود فتاة عن نفسها وقد وجدوه في بيتها.

حينها تعجب عمر من ذلك وقال: اللهم لا تُخلف ظني به والتفت إلى الفتى وقال له: أصدقني، فأخبره بالقصة على وجهها الحقيقي، فقال عمر: أتعرف العجوز؟ قال: نعم، إن رأيتها عرفتها.

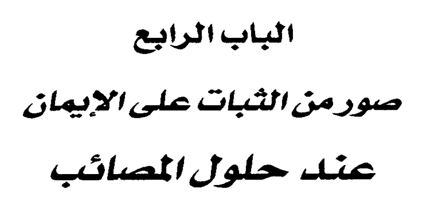
استبشر الفتى وتهللت أساريره حين رأى العجوز فعرفها وقال: هذه يا أمير المؤمنين، فرفع عمر الدرة وقال: أصدقيني، فقصت عليه القصة كما قصها الفتى، فتبسم الفاروق لأن ظنه لم يخب، وأخذ يردد: الحمد لله الذي جعل فينا شبيه يوسف[١].



(١) «صور من العفة» (ص: ٣٢-٣٨).



الباب الرابع



الفصل الأول ـ أسباب الثبات على المصائب.

الفصل الثاني ـ صور من الثبات على الإيمان عند حلول المصائب.



الفصل الأول

أسباب الثبات على الإيمان عند المصائب

اعلم - زادك الله علمًا - أنه من استخبر العقل والنقل أخبراه بأن الدنيا دار المصائب والشرور وليس فيها لذة على الحقيقة إلا وهي مشوبة بالكدر، فما يظن في الدنيا أنه شراب فهو سراب، وعمارتها وإن حسنت صورتها خراب، والعجب كل العجب ممن يده في سله الأفاعي كيف ينكر اللسع، وأعجب منه من يطلب من المطبوع على الضر النفع، قال بعض الأدباء:

طبعت على كدر وأنت تريدها ... صفوًا من الأقدار والأكدار

قال بعض السلف: رأيت جمهور الناس ينزعجون لنزول البلاء انزعاجًا يزيد على الحد كأنهم ما علموا أن الدنيا على ذا وضعت، وهل ينتظر الصحيح إلا السقم، والكبير إلا الهرم، والموجود سوى العدم؟!

قال الشاعر:

على ذا مضى الناس اجتماع وفرقة ... وميت ومولود وبشر وأحزان

ثم قال: لعمري إن أصل الانزعاج لا ينكر، إن الطبع مجبول على الأمن من حلول المنايا، وإنما ينكر الإفراط فيه والتكلف، كمن يخرق ثيابه ويلطم وجهه ويعترض على القدر، فإن هذا لا يرد فائتًا لكنه يدل على الخور الجازع ويوجب العقوبة، وسبب ذلك - والله أعلم - ضعف الإيمان بالآخرة والانشغال عنها بالعاجلة، قال الله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (النجم:٢٩)، فلا همَّ لهم إلا الدنيا ولا أسف إلا عليها، والعين المتطلعة إلى

الآخرة ضعيفة جـدًا لا تكاد ترى وقد عَمَّ هذا البلاء أهل هذا الزمان ـ نعوذ بالله من الخذلان ـ فالدنيا لا تخلو من بلية ولا تصفو من محنة ورزية؛ كما قال القائل:

المرء رهن مصائب لا تنقضي حتى يوسد جسمه في رمسه
فمؤجل يلقي الردى في غيره ومعجل يلقى الردى في نفسه

فكان لابد على الطريق من وسيلة تثبيت على الإيمان عند حلول المصائب ونزول النكبات وها هي بين يديك جمعتها لك من بطون الكتب، ولقد ذكر ابن القيم ـ رحمه الله ـ الأسباب المعينة على الصبر والتي تثبت العبد عندما تحل عليه مصيبة.

أولاً ـ قال ـ رحمه الله ـ: والصبر على البلاء ينشأ من عدة أسباب:

١ ـ **شهود جزائها وثوابها: قلتُ**: الحيوان الأعجمي الذي لا عقل له يدربه صاحبه فيصبر على السير على الحبال واقتحام حلقات النيران وخوض الصعاب طمعًا في قطعة لحم يحظى بها عند تمام فقرته يوم العرض، فاصبر أنت يا صاحب العقل على ما هو دون ذلك من محن الزمان طمعًا فيما أعده الله للصابرين من جزاء يوافيهم يوم العرض، ولأن شمس الأجر فوق رؤوس الصالحين بازغة لا تغيب ساطعة لا تحجبها غمامة شك أو سحابة هوى فقد كان كما وصف النبي ﷺ: «**ولأحدهم كان أشد فرحًا بالبلاء من أحدكم بالعطاء**»[1]، فرحًا حقيقيًا من أعماق القلب من علاماته عدم الشكوى، قال مغيرة: ذهبت عين الأحنف فقال: «ذهبت من أربعين سنة ما شكوتها لأحد».

---

(١) رواه ابن ماجه، وأبو يعلى، والحاكم عن أبي سعيد.

فهيا - أخي المسلم - حتى تثبت على طريق الإيمان لنشاهد فجر الأجر «محبة الله تعالى» والله يحب الصابرين.

٢ - عظيم الثواب: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠)، وقال رسول الله ﷺ: **«إن عظم الجزاء مع عظم البلاء»**[1].

٣ - تكفير السيئات: أخرج الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة»**.

وقال الفضيل: «إن الله ليتعاهد بدن المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله»، إلى غير ذلك من ثواب عظيم يدعو كل مسلم إلى الاستسلام لقضاء الله وقدره والثبات على دينه.

ثانيًا - قال ابن القيم - رحمه الله - شهود تكفيرها للسيئات ومحوها له، قلت: كما أشرت في الأحاديث الماضية ومنها ما أخرجه البخاري ومسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: **«ما من مسلم يصيبه أذى، شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته، وحطت عنه ذنوبه كما تحط الشجرة ورقها»**.

ثالثًا - مما يثبت المسلم على إيمانه عند المصيبة؛ يقول ابن القيم: شهود القدر السابق الجاري بها وأنها مقدرة في أم الكتاب قبل أن يخلق الخلق، فلابد منها فجزعه لا يزيده إلا بلاء.

قلت: يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحديد: ٢٢)، وقال سبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ (التغابن: ١١).

---

(١) حسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢١١٠).

قال علقمة: هي مصيبة تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى، وقال النبي ﷺ: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»[١].

فالمصيبة كير العبد الذي يُسبك بها حاصله، فإما أن يخرج ذهبًا أحمر وإما أن يخرج خبثًا كله كما قيل:

سبكناه ونحسبه لجينا ... فأبدى الكير عن خبث الحديد

فإن لم ينفعه هذا الكير في الدنيا فبين يديه الكير الأعظم فإذا علم العبد أن إدخاله كير الدنيا مسبكها خير له من ذلك الكير والمسبك، وأنه لابد من أحد الكيرين فليعلم قدر نعمة الله في الكير العاجل[٢].

رابعًا - يقول ابن القيم - رحمه الله -: شهود حق الله عليه في تلك البلوى وواجبه فيها الصبر بلا خلاف بين الأمة، أو الصبر والرضى على أحد القولين فهو مأمور بأداء حق الله وعبوديته عليه في تلك البلوى فلابد له منه وإلا تضاعفت عليه.

ويقول أيضًا: كل أحد لابد أن يصبر على ما يكون: إما اختيارًا وإما اضطرارًا، فالكريم يصبر اختيارًا لعلمه بحسن عاقبة الصبر وأنه يحمد عليه ويذم على الجزع، وإنه إن لم يصبر لم يرد عليه الجزع فائتًا، ولم ينتزع عنه مكروهًا وإنَّ المقدور لا حيلة في دفعه وما لم يقدر على حيلة في تحصيله فالجزع ضره

---

(١) أخرجه أحمد (جـ١، ٢٩٣)، والترمذي (جـ٩، ٣١٩)، وصححه الألباني.
(٢) «تسلية أهل المصائب» (ص: ٢٣-٢٤).

أقرب من نفعه، فإذا كان آخر الأمر الصبر والعبد غير محمود فما أحسن به أن يستقبل الأمر من أوله بما يستديره الأحمق في آخره. . .

خامساً - شهود ترتبها عليه بذنبه، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ (الشورى: ٣٠)، فهذا عام في كل مصيبة دقيقة وجليلة فشغله شهود هذا السبب بالاستغفار الذي هو أعظم الأسباب في دفع تلك المصيبة قال علي بن أبي طالب: «ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة».

السادس - أن يعلم أن الله قد ارتضاها له واختارها وقسمها وأن العبودية تقتضي رضاه بما رضي له به سيده ومولاه، فإن لم يوف قدر المقام حقه فهو لضعفه فيتنزل إلى مقام الصبر عليها.

السابع - أن يعلم أن هذه المصيبة هي دواء نافع ساقه إليه الطبيب العالم بمصلحته الرحيم، فليصبر على تجرعه ولا يتقيأه بتسخطه وشكواه فيذهب نفعه باطلاً، قال شيبان الراعي لسفيان الثوري: «يا سفيان عُدَّ منع الله إياك عطاء منه لك فإنه لم يمنعك بخلاً وإنما منع لطفًا»[1].

وقال عمر رضي الله عنه: «ما أبالي على أي حال أصبحت، أعلى ما أحب أم على ما أكره؟ ذلك أني لا أدري الخير فيما أحب أو فيما أكره»[2].

لا تكره المكروه عند نزوله ... إن الحوادث لم تزل متباينة

كم نعمة لا يستهان بشكرها ... لله في طي المكاره كامنة

قال الحسن - رحمه الله -: لا تكرهوا البلايا الواقعة والنقمات الحادثة فلرب أمر تكرهه فيه نجاتك ولرب أمر تؤثره فيه عطبك، وقال التنوخي: كان يقال المحن آداب الله - عزَّ وجلَّ - لخلقه وتأديب الله يفتح القلوب والأبصار.

---

(١)،(٢) «صيد الخاطر» (ص: ٢٥٣)، والأثر رواه أحمد في «العلل» (جـ١-١٤٩).

وقال كذلك: سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن عباس بن محمد بن صول الكاتب يصف الفضل بن سهل ويذكر تقدمه وعلمه وكرمه، وكان مما حدثني به أنه برئ من علة كان فيها فجلس للناس وهنوه بالعافية، فلما فرغ الناس من كلامهم قال الفضل: إن في العلل لنعمًا لا ينبغي للعاقل أن يجهلها تمحيص للذنب وتعرض لثواب الصبر وإيقاظ من الغفلة وإذكار بالنعمة في حال الصحة واستدعاء للمثوبة وحض على الصدقة وفي قضاء الله وقدره بعد الخيار[1].

الثامن ـ أن يعلم أن في عقبى هذا الدواء من الشفاء والعافية والصحة وزوال الألم ما لم تحصل بدونه.

فإذا طالعت نفسه كراهة هذا الدواء ومرارته فلينظر إلى عاقبته وحسن تأثيره قال الله تعالى: ﴿ **وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ (البقرة:٢١٦)، وقال سبحانه: ﴿ **فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ (النساء:١٩)، وفي مثل هذا قال القائل:

لعل عتبك محمود كعواقبه ... وربما صحة الأجسام بالعلل

التاسع ـ أن يعلم أن المصيبة ما جاءت لتهلكه وتقتله، وإنما جاء لتمتحن صبره وتبتليه فتبين حينئذ هل يصلح استخدامه وجعله من أوليائه وحزبه أم لا؟

فإن ثبت اصطفاه واجتباه وخلع عليه الإكرام وألبسه ملابس الفضل وجعل أولياءه وحزبه خدمًا له وعونًا له، وإن انقلب على وجهه ونكس على عقبيه طرد وصفع قفاه وأُقصي، وتضاعفت عليه المصيبة وهو لا يشعر في الحال بتضاعفها وزيادتها، ولكن سيعلم بعد ذلك بأن المصيبة في حقه صارت مصائب كما يعلم

---

(١) «تسلية المصاب» (ص٣١).

الصابر أن المصيبة في حقه صارت نعمًا عديدة وما بين هاتين المنزلتين المتباينتين إلا صبر ساعة وتشجيع القلب في تلك الساعة والمصيبة لابد أن تقلع عن هذا وهذا ولكن تقلع عن هذا بأنواع الكرامات والخيرات، وعن هذا بالحرمان والخذلان لأن تقدير العزيز العليم، وفضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

العاشر - أن يعلم أن الله يربي عبده على السراء والضراء والنعمة والبلاء فيستخرج منه عبوديته في جميع الأحوال، فإن العبد على الحقيقة من قام بعبودية الله على اختلاف الأحوال، وأما عبد السراء والعافية الذي يعبد الله على حرف فإن أصابه خير أطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه فليس من عبيده الذين اختارهم لعبوديته، فلا ريب أن الإيمان النافع يثبت على محل الابتلاء والعافية هو الإيمان النافع وقت الحاجة، وأما إيمان العافية فلا يكاد يصحب العبد ويبلغه منازل المؤمنين وإنما يصحبه إيمان يثبت على البلاء والعافية، فالابتلاء كير العبد ومحك إيمانه، فإما أن يخرج تبرًا أحمر، وإما أن يخرج زغلاً محضًا، وإما أن يخرج فيه مادتان ذهبية ونحاسية، فلا يزال به البلاء حتى يخرج المادة النحاسية من الذهبية، ويبقى ذهبًا خالصًا، فلو علم العبد أن نعمة الله عليه في البلاء ليست بدون نعمة الله عليه في العافية لشغل قلبه بشكره ولسانه، اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، وكيف لا يشكر من قيض له ما يستخرج خبثه ونحاسه وصيره تبرًا خالصًا يصلح لمجاورته والنظر إليه في داره؟! فهذه الأسباب ونحوها تثمر الصبر على البلاء؛ فإن قويت أثمرت الرضا والشكر، فنسأل الله أن يسترنا بعافيته ولا يفضحنا بابتلائه بمنه وكرمه[1].

---

(١) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ٣٤١-٣٤٣).

وهيا - أخي المسلم - لنقف مع صور من الثبات على الإيمان أمام المصائب وكيف ثبت أصحابها على الإيمان، وتقبلوا المصائب وكأنها نعم جاءت إليهم من قبل الله تعالى. ولله در من قال:

لا تكره المكروه عند نزوله	إن الحوادث لم تزل متباينة
كم نعمة لا يستهان بشكرها	لله في طي المكارة كامنة
ومن قال أرى البلايا تحيط المرء تحصنه	حتى لئن صحّ ذَوبُ الصَّخر لم يذوب
أَوَصَحَّ أن قناة الصلب قد وهنت	فلا يلين إذا ما صُبَّ في اللهب
ما حصحص الحق إلا بعد ما انسلخت	من عمر يوسف أعوام من النصب



الفصل الثاني
صور من الثبات على الإيمان عند حلول المصائب

المبحث الأول
ثبات الأنبياء على الإيمان عند حلول المصائب

أولاً - ثبات إبراهيم وإسماعيل

يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (الصافات: ٩٩-١١٠)، يقول محمد زين العابدين: رأى إبراهيم ﷺ في المنام أنه يذبح ابنه الذي هو بكره ووحيده ورؤيا الأنبياء وحي، فسارع الوالد إلى إخبار ابنه إسماعيل ﷺ بأمر ربه ليكون أهون عليه وليختبر صبره وجلده، فما كان من الولد البار بأبيه المستسلم لأمر ربه إلا أن قال: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾، ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾، إن القلم ليقف حيران أمام هذه العبارة، ماذا يكتب في تصويرها وبلاغتها وتقريبها من نفوس القارئين!! ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ هذا هو الإسلام.. انقياد واستسلام وطاعة وامتثال وتنفيذ، ولكن ليس للملوك والجبابرة بل لله وحده ولرسله عليهم أفضل الصلاة والتسليم.

﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ يا أبت الحليم الأواه المنيب، إن تنفيذ أمر الله أهم من حياتي في هذه الدنيا الفانية وسوف لا تراني ممتعضًا ولا مترددًا بل سأكون صابرًا محتسب الأجر عند الله.

﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ فالله جلت قدرته اختارنا لنكون حملة رسالة ونجوم هدى في أرضه وشموسًا تبدد كل ظلام، ولن نتردد في بذل دمائنا وأموالنا وكل ما نملك في سبيل الله.

إن كثير من الناس يستشهدون في ساحات الوغى ويضحون في سبيل الله بالمال والولد، ولكن عمل إبراهيم وإسماعيل لا يشبهه أية تضحية أو استشهاد، انظر للوالد الحنون يقول لابنه بكل رقة وشفقة: ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾، ويرد الولد بكل حب وتقدير: ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾، ولو قال لابنه: اذهب في الجهاد في سبيل الله وأرجو أن يشرفني الله بقتلك.. ولو قال مثل هذا القول لهان الأمر لأن أعداء الله هم الذين سيقتلونه أما هنا فالوالد المؤمن الداعية هو الذي سيقتل ابنه المؤمن الداعية.. سيقتله ذبحًا وهو الذي لم يقارف ذنبًا أو يفعل ما يوجب إقامة الحد عليه!!

لقد كانت حياة إسماعيل كلها طاعة وامتثال لكل ما يأمره به أبوه، وكان يعلم أن طاعته من طاعة الله تعالى، فعندما أخبر زوجه أن تقول له: غير عتبة بيتك، سارع إلى طلاقها، ولم يمنعه من تنفيذ الأمر حبه لها، أو حرصه على مصلحة أولادها، وعندما أمره أن يساعده في بناء الكعبة سارع إلى مساعدة أبيه دون كلٍّ ولا ملل.

ولن ننسى - وكيف ننسى - أن إسماعيل نشأ وترعرع في بيت امرأة كانت ثقتها بالله واستسلامها لأمره أكبر وأعظم من الوصف، وقد رأينا فيما مضى أنه

عندما علمت أن الله أمر إبراهيم بتركها مع ابنها في مكان ليس فيه مأوى ولا أمن، بل وليس فيه طعام ولا ماء، كان ردها «إذن لا يضيعنا» إذن هذا هو إسماعيل الذي قال لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾، وينتقل إبراهيم الخليل مع ابنه مع الحوار والموافقة النظرية إلى التنفيذ والتطبيق العملي قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾، أسلما - أي استسلم الوالد وابنه - فلم يسأل إبراهيم ربه عن سر هذا الأمر العجيب وكيف يذبح بكره ووحيده الذي انتظره طويلاً وجاءه بعد أن اشتعل رأسه شيبًا وبلغ من الكبر عتيًا ثم يذبحه بعد أن أصبح شابًا وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل.

ولم يقل إسماعيل: كيف ولماذا تذبحني وأنا الذي لم أعصك طوال حياتي أما يكفيك أنك ألقيتني في واد ليس فيه ماء ولا زرع وأنا طفل في حضن أمي وتركتنا طعامًا للوحوش؟! معاذ الله أن يقول شيئًا من هذا لأنه مؤمن ويعلم أن أباه ينفذ أوامر الله في كل عمل يفعله، ومن أخص صفات المسلم الرضا، وبدأ إبراهيم تنفيذ أمر الله فصرع ابنه وأوثق قيده مع أنه لم يتحرك طواعية من نفسه، وأمسك السكينة ثم وضعها على حلقه وأمرَّها فوق عنقه.. وفي هذه اللحظات سمع الخليل نداء ربه ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾، فالتفت إبراهيم عليه السلام فإذا بكبش أبيض كبير فذبحه وافتدى به ابنه وفلذة كبده، وصارت الأضحية سنة من السنن الإسلامية، وكان النحر بمكة من تمام حج البيت الحرام، ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ﴾، أي يصرف الله عمن أطاعه المكاره والشدائد، ويجعل له من أمره فرجًا ومخرجًا قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق: ٢-٣)، وجزاء الله لعباده المحسنين يكون بعد ابتلائه

لهم، وبعد صبرهم على هذا الابتلاء وثباتهم على الحق.. وبعد هذه الابتلاءات المتتالية لإبراهيم وولده، جعل الله في ذريتهما النبوة والحكمة و...[1].

ثانيًا - ثبات نبي الله أيوب عليه السلام

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٣-٨٤)، ويقول سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص: ٤١-٤٤).

يذكر الله تعالى عبده ورسوله أيوب عليه السلام وما ابتلاه تعالى به من الضر في جسده وماله وولده حتى لم يبق من جسده مغرز إبرة سليمًا سوى قلبه، ولم يبق له من حال الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما هو فيه غير أن زوجته حفظت وده لإيمانه بالله ورسوله فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه وتخدمه نحوًا من ثماني عشرة سنة، وقد كان قبل ذلك في مال جزيل وأولاد وسعة طائلة من الدنيا، فسُلب جميع ذلك، ورفضه القريب والبعيد سوى زوجته رضي الله عنها فإنها كانت لا تفارقه صباحًا ومساءًا إلا بسبب خدمة الناس ثم تعود إليه قريبًا، فلما طال المطال واشتد الحال وانتهى القدر المقدور وتم الأجل المقدر تضرع إلى رب العالمين وإله المرسلين قال: رب إني مسني الشيطان بنصب وعذاب، قيل: بنصب في بدني، وعذاب: في مالي وولدي، فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين

(١) «منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله» (جـ١، ص: ١٩٧-٢٠٠).

وأمره أن يقوم من مقامه وأن يركض الأرض برجله ففعل، فأنبع الله عينًا وأمره أن يغتسل منها فأذهب عنه جميع ما كان في بدنه من الأذى، ثم أمره فضرب الأرض في مكان آخر فأنبع عينًا أخرى، وأمره أن يشرب منها فأذهب ما كان في باطنه من السوء وتكاملت العافية ظاهرًا وباطنًا.

قال ابن عباس: رد الله عليه ماله وولده بأعيانهم ومثلهم معهم، وقال الحسن وقتادة: أحياهم الله بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم، وقيل: آجره فيمن سلف وعوضه عنهم في الدنيا بدلهم، وجمع له شمله بكلهم في الدار الآخرة.

وأخرج البخاري وأحمد عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أيوب يغتسل عريانًا خرَّ عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب يحثي في ثوبه فناداه ربه: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى يا رب ولكن لا غنى لي عن بركتك»، وقال سيد قطب ـ رحمه الله ـ: قصة ابتلاء أيوب من أروع قصص الابتلاء.. وأيوب هنا في دعائه لا يزيد وصف حاله «أني مسني الضر» ووصف ربه بصفته «وأنت أرحم الراحمين» ثم لا يدعو بتغير حاله صبرًا على بلائه ولا يقترح شيئًا على ربه تأدبًا معه وتوقيرًا، فهو نموذج للعبد الصابر الذي لا يضيق صدره بالبلاء ولا يتململ من الضر الذي تضرب به الأمثال في جميع الأعصار بل إنه ليتحرج أن يطلب إلى ربه رفع البلاء عنه فيدع الأمر كله إليه اطمئنانًا إلى علمه بالحال وغناه بالسؤال، وفي اللحظة التي توجه فيها أيوب إلى ربه بهذه الثقة وبذلك الأدب كانت الاستجابة وكانت الرحمة وكانت نهاية الابتلاء.

إن في بلاء أيوب لمثلاً للبشرية كلها، وإن في صبر أيوب لعبرة للبشرية كلها، وإنه لأفق للصبر وحسن العاقبة تتطلع إليه الأبصار.

العابدون معرَّضون للابتلاء والبلاء وتلك تكاليف العبادة والعقيدة وتكاليف الإيمان[1].

ثالثا - ثبات النبي محمد ﷺ عند وفاة ولده

عن أنس رضي الله عنه قال: رأيت إبراهيم وهو يجود بنفسه بين يدي رسول الله، فدمعت عينا رسول الله ﷺ وقال ﷺ: «**تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون**»[2].

المبحث الثاني

صور من ثبات الصحابة والتابعين

أولا - ثبات عمران بن حصين رضي الله عنه

هذا صحابي من صحابة النبي ﷺ ممن تربى على الصبر وممن فقه قول النبي ﷺ: «**من يرد الله به خيراً يصب منه**»[3]، وهكذا كان عمران رضي الله عنه كان صابراً على البلاء ثلاثين سنة، كان عظاماً ممدودة على سريره، ولما دخل عليه أخوه مع الإمام الشعبي رأياه ممدوداً على سريره كأنما شد بالحبال، وما شد إلا بانتهاك أعصابه وذوبان لحمه ووهن عظمه، فبكى أخوه فقال عمران رضي الله عنه: لا تبك فإن أحبه إلى الله أحبه إلي.

---

(١) «ظلال القرآن» (جـ٤، ص: ٢٣٩٢).

(٢) أخرجه ابن سعد (جـ١، من ٩٠)، «حياة الصحابة» (جـ٢، ص: ٥٧٥).

(٣) رواه البخاري (٥٦٤٥).

ثلاثين سنة وهو على سريره ما أصابه الضجر ولا السخط، بل رضى كل الرضى، وثبت على إيمانه أمام ذلك المرض.

وقفة ثبات:

يقول رسول الله ﷺ : **«إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضى فله الرضى، ومن سخط فله السخط»**[١]، وقال ﷺ : **«أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على قدر دينه؛ فإن كان في دينه صلابة اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»**[٢]، فكلما اشتد البلاء على العبد دل ذلك على قوة إيمانه وثباته أمام البلايا والرزايا.

ثانيًا ـ ثبات عبد الله بن عباس رضي الله عنه

عبد الله بن عباس هو حبر الأمة وترجمان القرآن، تربى في أكناف محمد ﷺ ، فعن عكرمة عن ابن عباس قال: ضمني إليه رسول الله ﷺ وقال: **«اللهم علمه الحكمة»**.

وفي حديث آخر قال: **«اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل»**، نُعيت له ابنته فاسترجع وقال في ثبات المؤمنين الراضين الصابرين: عورة سترها الله، ومؤونة كفاها الله، وأجر قد ساقه الله... ثم نزل فصلى ركعتين، ثم قال: قد صنعنا ما أمرنا به الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٣).

---

(١) رواه أحمد بإسناد جيد عن محمود بن لبيد ومحمود مختلف في صحته.
(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه، وابن حبان.

وذكر ابن الجوزي عن سماك: أن ابن عباس سقط في عينيه الماء فذهب بصره فأتاه هؤلاء الذين ينقبون العيون ويسيلون الماء فقالوا: خل بيننا وبين عينيك نسيل ماءهما، ولكنك تمكث خمسة أيام لا تصلي - يعني قائمًا - قال: لا والله ولا ركعة واحدة، إني حدثت أنه من ترك صلاة واحدة متعمدًا لقي الله - عزَّ وجلَّ - وهو عليه غضبان، ولما أصيب في بصره أنشد يقول:

إن يذهب الله من عيني نورهما ... فـفي لساني وقلبي للهدى نور

عقلي ذكي وقولي غير ذي خطل ... وفي فمي صارم كالسيف مأثور

وقفة ثبات:

مرض أبو بكر رضي الله عنه فعادوه فقالوا: ألا ندعو لك الطبيب، فقال: «**قد رآني الطبيب**»، قالوا: فأي شيء قال لك؟ قال: «**إني فعال لما أريد**».

* قال عمر رضي الله عنه: «**وجدنا خير عيشنا بالصبر**»، وقال أيضًا: «**أفضل عيش أدركناه بالصبر، ولو أن الصبر كان من الرجال كان كريمًا**»، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس بار الجسم**»، ثم رفع صوته فقال: «**إنه لا إيمان لمن لا صبر له**»، وقال: «**الصبر مطية لا تكبو**».

* وقال الحسن: الصبر كنز من كنوز الخير لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده.

* وقال سليمان بن القاسم: كل عمل يرفع ثوابه إلا الصبر قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠)، قال: كالماء المنهمر[١].

---

(١) كتاب «لا تحزن» (ص: ٧٨).

ثالثًا - ثبات معاذ بن جبل رضي الله عنه

يكنى أبا عبد الرحمن، وأسلم وهو ابن ثماني عشر سنة، وشهد العقبة مع السبعين وبدر والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وأردفه رسول الله وراءه وبعثه إلى اليمن بعد غزوة تبوك وشيعه ماشيًا في مخرجه وهو راكب.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ ابن جبل**» (رواه أحمد).

ثباته رضي الله عنه: أخرج ابن خزيمة وابن عساكر عن عبد الرحمن بن غنم قال: وقع الطاعون بالشام فقال عمرو بن العاص: «إن هذا الطاعون رجس ففروا منه في الأودية والشعاب»، فبلغ ذلك شرحبيل بن حسنة رضي الله عنه فغضب وقال: كذب عمرو بن العاص، لقد صحبت رسول الله ﷺ وعمرو أضل من جمل أهله: «إن هذا الطاعون دعوة نبيكم ورحمة ربكم ووفاة الصالحين قبلكم»، فبلغ ذلك معاذ رضي الله عنه قال: «اللهم اجعل نصيب آل معاذ الأوفر»، فماتت ابنتاه وطُعن ابنه عبد الرحمن فقال: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (البقرة:١٤٧)، فقال: ستجدني إن شاء الله من الصابرين.

وطُعن معاذ في ظهر كفه فجعل يقول: هي أحب لي من حُمر النعم. ورأى رجل يبكي فقال: ما يبكيك؟، قال: العلم الذي كنت أصيب، قال: لا تبكي فإن إبراهيم كان في الأرض وليس بها عالم فأتاه الله علمًا، فإذا أنا مت فاطلب العلم عند أربعة: عبد الله بن مسعود وعبد الله بن سلام وسلمان وأبي الدرداء رضي الله عنهم [1].

(١) «حياة الصحابة» (جـ٢، ص: ٥٧١).

وقفة ثبات:

يقول ابن القيم: «الصبر إذا قام به العبد كما ينبغي انقلبت المحنة في حقه منحة واستحالة البلية عطية وصار المكروه محبوبًا؛ فإن الله سبحانه وتعالى لم يبتله ليهلكه وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته، فإن لله تعالى على العبد عبودية في الضراء كما له عبودية في السراء، وله عبودية عليه فيما يكره كما له عبودية فيما يحب، وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون، والشأن في إعطاء العبودية في المكاره ففيه تفاوت مراتب العباد وبحسبه كانت منازلهم عند الله تعالى»[١].

رابعًا ـ ثبات امرأة من أهل الجنة

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ بمكة فجاءته امرأة من الأنصار فقالت: يا رسول الله إن الخبيث قد غلبني فقال لها: «إن تصبري على ما أنت عليه تجيئين يوم القيامة ليس عليك ذنوب ولا حساب»، فقالت: والذي بعثك بالحق لأصبرن حتى ألقَ الله.. قالت: إني أخاف الخبيث أن يجردني، فدعا لها فكانت إذا خشيت أن يأتيها تأتي أستار الكعبة فتتعلق بها تقول له: اخسأ فيذهب عنها[٢].

خامسًا ـ ثبات امرأة من الأنصار

عن أنس قال: لما كان يوم أُحد صاح أهل المدينة صيحة وقالوا: قتل محمد حتى كثرت الصواريخ في نواحي المدينة، فخرجت امرأة من الأنصار فاستقبلت بأخيها وأبيها وزوجها وابنها، لا أدري بأيهم استقبلت أولاً، فلما مرت على آخرهم قالت: من هذا؟ قالوا: أخوك وأبوك وزوجك وابنك!!!

---

(١) «لا تحزن» (٣٠٢).

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قال: أمامك، فذهبت إلى رسول الله ﷺ فأخذت بناحية ثوبه وجعلت تقول: بأبي أنت وأمي أنت يا رسول الله، لا أبالي إذا سلمت من عطب[١].

سادسًا ـ ثبات أبي ذر رضي الله عنه

كان أبو ذر لا يعيش له ولد فقيل له: إنك لا يعيش لك ولد، فقال في ثبات المؤمنين: الحمد لله، كل ذلك في كتاب، الحمد لله الذي يأخذهم في دار الفناء ويدخرهم لي في دار البقاء.

سابعًا ـ عبد الله بن عامر رضي الله عنه

كان لعبد الله بن عامر سبعة أبناء فماتوا في يوم واحد، فهل شق الجيوب؟ هل دعى بدعوى الجاهلية؟ كلا! إنه الإيمان الذي رسخ في قلوب المؤمنين، قال ـ رحمه الله ـ: الحمد لله إني مُسْلِمٌ مُسَلِّمٌ.

يمضي الصغير إذا انقضت أيامه ... إثر الكبير ويولد المولود

والناس في قسم المنية بينهم ... كالزرع منه قائم وحصيد

حاله ـ رحمه الله ـ كحال القائل:

ما قد قضى يا نفس فاصطبري له ... ولك الأمان من الذي لم يقدري

ثم اعلمي أن المقدر كائن حتمًا ... عليك صبرت أم لم تصبري[٢]

---

(١) «صفة الصفوة» (جـ١، ص: ٢٨٧).

(٢) محاضرة «كشف الكربة عند فقد الأحبة» علي القرني.

وقفة ثبات عون على الصبر:

يقول ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: ليس في الوجود شيء أصعب من الصبر إما عن المحبوب أو على المكروهات وخصوصًا إذا امتد الزمان أو وقع اليأس من الفرج وتلك المدة تحتاج إلى زاد يقطع به سفرها، والزاد يتنوع من أجناس.

فمنه: تلمح مقدار البلاء وقد يمكن أن يكون أكثر.

ومنه: أنه في حال فوقها أعظم منها مثل أن يبتلى بفقد ولد وعنده أعز منه.

ومن ذلك رجاء العوض في الدنيا، ومن ذلك: تلمُّح الأجر في الآخرة.

ومنه: التلذذ بتصوير المدح والثناء من الخلق فيما يمدحون عليه والأجر من الحق عزَّ وجلَّ.

ومن ذلك: أن الجزع لا يفيد بل يفضح صاحبه، إلى غير ذلك من الأشياء التي يقدحها العقل والفكر فليس في طريق الصبر نفقة سواها، فينبغي للصابر أن يشغل به نفسه ويقطع به ساعات ابتلائه وقد صبح المنزل[1].

ثامنًا ـ ثبات امرأة من أهل البادية

روى ابن حاتم عن الأصمعي قال: خرجت أنا وصديق لي إلى البادية فضللنا الطريق، فإذا نحن بخيمة على جانب الطريق فذهبنا إليها فإذا امرأة عجوز ترد السلام ثم قالت: من أنتم؟، قلنا: قوم ضلوا الطريق فأنسنا بكم، فقالت: ولوا وجوهكم حتى أقضي من حقكم فأنتم له أهل، ففعلنا وجلسنا على فراش ألقته لنا وإذا ببعير مقبلٌ عليه راكب وإذا هي تقول: أسأل الله بركة المقبل، أما البعير فبعير والدي، وأما الراكب فليس بولدي فجاء الراكب وقال:

---

(١) «صيد الخاطر» (ص:١٤٢).

يا أم عقيل السلام عليك أعظم الله أجرك في ولدك عقيل، فقالت: ويحك أو قد مات عقيل؟ قال: نعم، قالت: ما سبب موته؟ قال: ازدحمت عليه الإبل فألقته في البئر، فقالت له: انزل، فدفعت له كبشًا ونحن مدهشون فذبحه وأصلحه وقربه إلينا، ثم قالت: أفيكم أحد يحسن من كتاب الله شيئًا؟ قلنا: نعم، فقالت: اقرأ عليَّ شيئًا أتعزى به، فقال: قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة:١٥٥-١٥٧)، فقالت: آلله أفي كتاب الله؟! قلنا: نعم، قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، صبرًا جميلاً وعند الله نحتسب عقيلاً، اللهم إني قد فعلت ما أمرتني به فآجرني ما وعدتني ولو بقى أحد لأحد لبقى محمد ﷺ لأمته[١]، قال: فخرجنا ونحن نقول: ما أكمل منها!!

* قال المدائني: رأيت بالبادية امرأة لم أر أجلد ولا أنضر منها ولا أحسن وجهًا منها فقلت: تالله إن فعل هذا بك الاعتدال والسرور فقالت: كلا والله إن لدي أحزانًا وخلفي همومًا وسأخبرك، كان لي زوج وكان لي منه ابنان، فذبح أبوهما شاة في يوم عيد الأضحى والصبيان يلعبان فقال الأكبر للأصغر: أتريد أن أريك كيف ذبح أبي الشاة؟ قال: نعم، فذبحه فلما نظر إلى الدم جزع ففزع نحو الجبل فأكله الذئب، فخرج أبوه في طلبه فتاه أبوه فمات عطشًا فأفردني الدهر، فقلت لها: وكيف أنت والصبر؟ فقالت: لو دام لي لدمت ولكنه كان جرحًا فاندمل[٢].

---

(١) محاضرة «كشف الكربة عند فقد الأحبة».

(٢) «ألف قصة وقصة» (٣٨٩).

تاسعا ـ ثبات أعرابية

قال الأصمعي: أصيبت أعرابية بابنها وهي حاجة، فلما دفنته قامت على قبره وقالت: والله يا بني لقد غدوتك رضيعًا وفقدتك سريعًا، وكأنه لم يكن بين الحالين مدة التذوا بعيشك فيها، فأصبحت بعد النضارة والغضارة ورونق الحياة والشم في طيب روائحها تحت أطباق الثرى جسدًا هامدًا ورفاتًا سحيقًا وصعيدًا جرزًا . . أي بني لقد سحبت الدنيا عليك أذيال الفناء وأسكنتك دار البلى ورمتني بعدك بنكبة الردى . . أي بني لقد أسفر لي عن وجه الدنيا صباح داجٍ ظلامه ثم قالت: أي ربي منك العدل ومن خلقك الجور وهبته لي قرة عين فلم تمتعني به كثيرًا بل سلبته وشيكًا ثم أمرتني بالصبر ووعدتني عليه الأجر فصدقت وعدك ورضيت قضاءك فرحم الله على من ترحم من استودعته الرماد ووسدته الثرى، اللهم أرحم غربته وآنس وحشته واستر عورته يوم تنكشف الهنات والسوئات ولما أرادت الرجوع إلى أهلها قالت: أي بني إني قد تزودت لي سفري فليت شعري ما زادك لبعد طريقك ويوم ميعادك، اللهم إني أسألك له الرضا برضائي عنه، ثم قالت: أستودعك من استودعتني إياه في أحشائي جنينًا وثكلا الوالدات ما أمضى حرارة قلوبهم واقلق مضاجعهن وأقصر نهارهن وأقل أنسهن وأشد وحشتهن وأبعدهن من السرور وأقربهن من الأحزان، قال الأصمعي: ولم تزل تقول هذا ونحوه حتى أبكت كل من سمعها وحمدت الله عزَّ وجلَّ واسترجعت وصلت ركعات عند قبره وانصرفت[١] .

---

(١) «٢٨٠ قصة» (ص: ١٤٥، ١٤٦).

وقفة ثبات:

يقول الشيخ أحمد فريد - حفظه الله -: من أعظم ما يتسلى به من أصيب بمصيبة فصبر لها واسترجع ما وعده الله عزَّ وجلَّ من الأجر والثواب حيث قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾(البقرة: ١٥٥-١٥٧).

والمصيبة كما قال القرطبي: هي كل ما يؤذي المؤمن ويصيبه، وقد جعل الله عزَّ وجلَّ كلمات الاسترجاع وهي قول المصاب: «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون» ملجأ وملاذًا لذوي المصائب وعصمة للممتحنين[١] من الشيطان لئلا يتسلط على المصاب فيوسوس له بالأفكار الرديئة فيهيج ما سكن ويظهر ما كمن إذ لجأ إلى هذه الكلمات الجامعات لمعان الخير والبركة فإن قوله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ إقرار بالعبودية والملك واعتراف العبد لله بما أصابه منه فالملك يتصرف في ملكه كيف يشاء، وقوله: ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، إقرار بأن الله يهلكنا ثم يبعثنا، فله الحكم في الأولى وله المرجع في الأخرى، وفيه كذلك رجاء ما عند الله من الثواب.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: نعم العدلان ونعمت العلاوة للصابرين يعني بالعدلين: الصلاة والرحمة، وبالعلاوة: الهدى، والعلاوة ما يحمل فوق العدلين على البعير، ومن بركة هذا الاسترجاع العاجلة بالإضافة إلى ما ذكر ما ورد عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، اللهمَّ أجرني في مصيبتي وأخلف لي خير منها، إلا أخلف الله له خيرًا منها**»، فلما مات أبو سلمة، قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قلتها فأخلف الله لي رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢].

---

(١) في الأصل للمتحنين ولعلها: للممتحنين.
(٢) أخرجه مسلم (٦، ٢٢٠، ٢٢١).

(ومن بركة الحمد والاسترجاع في الآخرة ما رواه أبو سنان قال: دفنت ابني سنانًا وأبو طلحة الخولاني جالس على شفير فلما فرغت قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟، فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع فيقول: ابنو لعبدي بيتًا في الجنة وسموه بيت الحمد»**[1])[2].

* وها هي أعرابية ضربت مثلاً آخر من أمثلة الثبات على الإيمان أمام المصائب والشدائد، فها هي تقف على قبر أبيها، فقالت: يا أبت إن لله تبارك وتعالى من فقدك عوضًا وفي رسول الله ﷺ من مصيبتك أسوة، ثم قالت: اللهم نزل بك عبدك مفتقرًا من الزاد مخشوشن المهاد، غنيًا عما في أيدي العباد فقيرًا إلى ما في يديك يا جواد، وأنت رب خير من نزل به المأملون، واستغنى بفضله المقلون، وولج في سعة رحمته المذنبون، اللهم فليكن قرى عبدك منك رحمتك ومهاده جنتك، ثم انصرفت.

عاشرًا - يزيد بن هارون

مروا بيزيد بن هارون - عليه رحمة الله - وقد عمى، وكانت له عينان جميلتان قل أن توجد عند أحد في عصره مثل تلك العينين فقالوا له وقد عُمي: ما فعلت العينان الجميلتان يا ابن هارون؟ فقال: ذهب بهما بكاء الأسحار، وإني لأحتسبهما عند الله الواحد الغفار.

---

(١) أخرجه الترمذي وحسنه.

(٢) كتاب «تسلية المصاب» (ص: ٧-٨).

فطب نفسًا إذا حكم القضاء

ولا تجزعي لحادثة الليالي فما لحوادث الدنيا بقاء
ومن نزلت بساحته المنايا فلا أرض تقيه ولا سماء[١]

وقفة ثبات:

يقول الشيخ أحمد فريد ـ حفظه الله ـ: «ومما يتسلى به المصاب أن يعلم أن المصائب تتفاوت، فمهما كانت المصيبة بعيدة عن الدين تسلى بذلك لأن المصيبة في الدين من أعظم المصائب، ومصائب الدنيا كذلك تتفاوت فمهما حصلت الأدنى تسلى بذلك».

قال السفاريني ـ رحمه الله ـ: المصائب تتفاوت فأعظمها المصيبة في الدين، نعوذ بالله من ذلك، فإنها أعظم من كل مصيبة، يؤيد ذلك قوله ﷺ: «المسلوب من سلب دينه»[٢].

فإذا رأيت إنسانًا لا يبالي بما أصابه في دينه من ارتكاب الذنوب والخطايا وفوات الجمعة والجماعات وأوقات الطاعات فاعلم أنه ميت لا يحس بألم المصيبة ﴿فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ (الروم:٥٢)، ثم بعد المصيبة في الدين المصيبة في النفس ثم في الأهل وهي مقاربة المصيبة في النفس، ثم المصيبة في المال، وهذه كالتي قبلها تتفاوت بحسب فخامة المصائب فيه وحقارته، فأعظمها أنفسها، إلى أن تصل إلى شسع النعل والشوكة فإنهما في غاية الحقارة؛ فإن حر المصيبة تنال من القلب بقدر ما فقد وتألم، وشسع النعل في غاية الخسة، فنبه المصطفى ﷺ على أعلى المصائب بقوله: «المسلوب من سلب دينه»،

(١) «هكذا علمتني الحياة» علي القرني.
(٢) لا أصل له بهذا اللفظ.

ويقرب من هذا قوله ﷺ : «أيها الناس أيما أحد من الناس أو من المؤمنين أصيب بمصيبة فليتعز بمصيبته بي عن المصيبة التي تصيبه بغيري؛ فإن أحدًا من أمتي لن يصاب بمصيبة بعدي أشد عليه من مصيبتي»[١] .

قال في (تسلية المصاب): ومن أعظم المصائب في الدين موت النبي ﷺ، لأن المصيبة به أعظم من كل مصيبة يصاب بها المسلم، لأن بموته انقطع الوحي من السماء إلى يوم القيامة وانقطعت النبوات، وكان موته أول ظهور الشر والفساد بارتداد الذين ارتدوا عن الدين من الأعراب؛ فهذا أول انقطاع عرى الدين ونقصانه وغير ذلك من الأمور التي لا تحصى، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «ما نفضنا أيدينا من التراب من قبر رسول الله ﷺ حتى أنكرنا قلوبنا» (رواه ابن ماجه).

قال أبو العتاهية مسليًا بعض إخوانه في ولد اسمه محمد:

اصبر لكل مصيبة وتجلد ... واعلم بأن المرء غير مخلد
أو ما ترى أن المصائب جمة ... وترى المنية للعباد بمرصد
من لم يصب ممن ترى بمصيبة ... هذا سبيل لست فيه بأوحد
فإذا ذكرت محمدًا ومصابه ... فاذكر مصابك بالنبي محمد

قال شريح: إني لأصاب المصيبة فأحمد الله عزَّ وجلَّ عليها أربع مرات أحمده إذ لم تكن المصيبة أعظم مما هي، وأحمده إذ رزقني الصبر عليها، وأحمده إذ وفقني للاسترجاع لما أرجو فيه من الثواب، وأحمد الله إذ لم يجعلها في ديني»[٢] .

(١) رواه ابن ماجه (١٥٨٨).
(٢) «تسلية المصاب» (ص: ٣٢-٣٣).



الباب الخامس

الثبـات عنـد الممـات

الفصل الأول - وسائل الثبات عند الممات.

الفصل الثاني - صور من الثبات عند الممات.

الفصل الأول
وسائل الثبات عند الممات

اعلم ـ علمني الله وإياك ـ أن أمامك عقبة كئود لا يجتازها إلا من ثبت على الصراط المستقيم وقدم بين يديه الزاد لسفره وتحصن بحصون التقوى، وكان شعاره على الطريق «يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك»[١].

يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ. . .﴾ (إبراهيم: ٢٧).

يقول القرطبي ـ رحمه الله ـ: «وإذا كانت الهداية إلى الله مصروفة والاستقامة على مشيئته موقوفة والعاقبة مغيبة والإرادة غير مغالبة، فلا تعجب بإيمانك وعملك وصلاتك وصومك وجميع قربك، فإن ذلك ـ وإن كان من كسبك ـ فإنه من خلق ربك وفضله الدارّ عليك، فمهما افتخرت بذلك كنت كالمفتخر بمتاع غيره، وربما سلب عنك فعاد قلبك من الخير أخلى من جوف البعير فكم من روضة أمست وزهرها يانع عميم فأصبحت وزهرها يابس هشيم إذ هبت عليها الريح العقيم، العبد يمسي وقلبه بطاعة الله مشرق سليم فيصبح وهو بمعصية الله مظلم سقيم، ذلك فعل العزيز الحليم الخلاق العليم»[٢].

وعن سهل بن سعد أن رجلاً من أعظم المسلمين غناء عن المسلمين في غزوة غزاها مع النبي ﷺ فنظر النبي ﷺ فقال: «من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا»، فاتبعه رجل من القوم وهو على تلك الحال من أشد

(١) حديث صحيح: انظر «النصيحة» للشيخ محمد إسماعيل.
(٢) «التذكرة» (ص: ٤٤).

الناس على المشركين حتى جُرح فاستعجل الموت فجعل ذبابة سيفه بين ثدييه حتى خرج من بين كتفيه فأقبل الرجل إلى النبي ﷺ مسرعًا فقال: أشهد أنك رسول الله فقال: **«وما ذاك؟»**، قال: قلت لفلان: من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إليه، وكان أعظمنا غناءً عن المسلمين فعرفت أنه لا يموت على ذلك، فلما جرح استعجل الموت فقتل نفسه، فقال النبي ﷺ عند ذلك: **«إن العبد ليعمل عمل أهل النار وإنه من أهل الجنة، ويعمل عمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنما الأعمال بالخواتيم»**[1].

لذا كان النبي ﷺ يكثر من هذا الدعاء **«اللهم يا ولي الإسلام وأهله مسكني بالإسلام حتى ألقاك عليه»**[2]، «عياذًا بالله من الحور بعد الكور ومن الضلالة بعد الهدى ومن المعصية بعد التقى، كم من وجوه خاشعة وقع على قصص أعمالها عاملة ناصبة تصلى نارًا حامية، وكم من شارف مركبه ساحل النجاة فلما همَّ أن يرتقي لعب به موجٌ فغرق، الخلق كلهم تحت هذا الخطر، قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، ما العجب ممن هلك كيف هلك إنما العجب ممن نجا كيف نجا»[3].

قال أبو محمد عبد الحق: اعلم أن سوء الخاتمة - أعاذنا الله منها - لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، ما سُمع بهذا ولا عُلم به والحمد لله، وإنما تكون لمن كان له فساد في العقل أو إصرار على الكبائر وإقدام على العظائم، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة فيصطلمه الشيطان عند تلك

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.
(٢) حديث صحيح: «النصيحة في الأذكار والأدعية الصحيحة» للشيخ محمد إسماعيل.
(٣) «لطائف المعارف» (ص: ٣٥٥-٣٥٦).

الصدمة ويختطفه عند تلك الدهشة - والعياذ بالله ثم العياذ بالله - أو يكون ممن كان مستقيمًا ثم يتغير عن حاله ويخرج عن سننه ويأخذ في طريقه فيكون ذلك سببًا لسوء خاتمته وشؤم عاقبته كإبليس الذي عبد الله فيما يروى ثمانين ألف سنة، وبلعام بن باعوراء الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها بخلوده إلى الأرض واتباع هواه، وبرصيصا العابد الذي قال الله في حقه: ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ ﴾ (الحشر:١٦).

ويروى أنه كان بمصر رجل ملتزم مسجدًا للأذان والصلاة وعليه بهاء العبادة وأنوار الطاعة، فرقى يومًا المنارة على عادته للأذان وكانت تحت المنارة دار لنصراني ذمي فاطلع فيها فرأى ابنة صاحب الدار فافتتن بها وترك الأذان ونزل إليها ودخل الدار، فقالت له: ما شأنك؟ ما تريد؟ فقال: أنتِ أُريد، قالت: لماذا؟ قال لها: قد سلبت لُبي وأخذت بمجامع قلبي، قالت: لا أجيبك إلى ريبه، قال لها: أتزوجك، قالت له: أنت مسلم وأنا نصرانية وأبي لا يزوجني منك، قال لها: أتنصر، قالت: إن فعلت أفعل، فتنصر ليتزوجها وأقام معها في الدار فلما كان في أثناء ذلك اليوم رقى إلى سطح كان في الدار فسقط منه فمات، فلا هو بدينه ولا هو بها، فنعوذ بالله، ثم نعوذ بالله من سوء العاقبة وسوء الخاتمة[1].

---

(١) «التذكرة» (ص: ٤٢-٤٣).

وسائل الثبات:

أولاً - الاستقامة

وهي من أعظم الأسباب والوسائل للثبات عند الممات، يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت: ٣٠)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الأحقاف: ١٣)، والاستقامة كلمة جامعة لكل ما أمر الله به وكل ما نهى عنه، واختلف العلماء في معناها فقال أبو بكر الصديق ﷺ: «ألا تشرك بالله شيئًا»، وفسرها عمر ﷺ بأنها الاستقامة على الأمر والنهي ولا تروغ روغان الثعالب، وفسرها ابن تيمية بالمحبة والعبودية لا يلتفتون عنها يمنة ولا يسرة، والله سبحانه قد بشر أهل الاستقامة بالروح والريحان ورب راضٍ غير غضبان، فالملائكة تتنزل عليهم ليثبتهم على الإيمان ومعهم التحف الربانية - البشارة بالجنة والنجاة من النار - وها هم أهل الاستقامة على فراش الموت لما احتضر أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ﷺ قال: لا تبكوا علي فإني لم أتنطف بخطيئة منذ أسلمت.

والعماد المقدسي قال عنه ابن قدامة: من عمري أعرفه ما عرفت أنه عصى الله معصية، فلما جاءه الموت جعل يقول: يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث، واستقبل القبلة وتشهد.

وأما أهل الكفر والفجور فإنهم يحرمون الثبات في أشد الأوقات كربة فلا يستطيعون التلفظ بالشهادة عند الموت وهذا من علامات سوء الخاتمة، كما قيل لرجل عند موته: قل لا إله إلا الله، فجعل يحرك رأسه يمينًا وشمالاً يرفض قولها.

وآخر يقول عند موته: هذه قطعة جيدة وهذه مشتراها رخيص، وثالث يذكر قطع الشطرنج، ورابع يدندن بألحان أو كلمات أغنية أو ذكر معشوق، ذلك لأن

مثل هذه الأمور أشغلتهم عن ذكر الله في الدنيا، وقد يُرى من هؤلاء سواد وجه أو نتن رائحة أو صرف عن القبلة عند خروج أرواحهم ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وأما أهل الصلاح والسنة فإن الله يوفقهم للثبات عند الممات فينطقون بالشهادتين[١].

ثانيًا - التقوى

يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢).

قال الشيخ أحمد فريد - حفظه الله -: وعد الله - عزَّ وجلَّ - أهل التقوى بالمخرج والنجاة من كل ضيق فقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ (الطلاق: ٢).

ولاشك أن العبد في حال السكرات في شدة وحرج والمخرج والنجاة في الذكر والطاعة والنطق بكلمة التوحيد كما وعد الله - عزَّ وجلَّ - المتقين اليسر بعد المشقة فقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ (الطلاق: ٤).

ويقول الشاعر:

تزود من التقوى فإنك لا تدري ... إذ جن ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكًا ... وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري
وكم من صغار يرتجى طول عمرهم ... وقد أدخلت أجسامهم ظلمة القبر
وكم من عروس زينوها لزواجها ... وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر
وكم من صحيح مات من غير علة ... وكم من سقيم عاش حينًا من الدهر

---

(١) «وسائل الثبات على الإيمان» (ص: ٤١، ٤٢).

ثالثاً - حسن الظن بالله تعالى

عن واثلة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول: أنا عند حسن ظن عبدي بي؛ إن خيراً فخير وإن شراً فشر»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: إذا أحب عبدي لقائي أحببت لقاءه، وإذا كره لقائي كرهت لقاءه»(٢).

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاث يقول: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله».

قال ابن الجوزي: فليجعل المريض حسن الظن بالله شعاره ودثاره وليقوِّ الرجاء في نفسه؛ فإن الخوف سوط تساق به النفس إلى الجلد، وما بقي في الناقة موضع سوط إنما حسن الظن.

وعن أنس أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت فقال له: «كيف تجدك؟»، قال: أرجو الله وأخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجوه وأمَّنه مما يخاف»(٣).

وقال حبان أبو النضر: قال لي واثلة بن الأسقع: قُدني إلى يزيد بن الأسود فإنه قد بلغني أنه لَمَّا به فقدته فدخل عليه وهو ثقيل، فقلت له: إنه ثقيل قد وجه وقد ذهب عقله، فلما سمع أن واثلة قد جاءه فمد يده فجعل يلتمس بها، فعرفت ما يريد فأخذت كفَّ واثلة فجعلتها في كفه، وإنما أراد أن تقع يده في يد

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط»، وأبو نعيم في «الحلية»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٩٠٥).

(٢) أخرجه مالك وأحمد والبخاري.

(٣) أخرجه ابن ماجه، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (١٠٥١).

واثلة ذلك لموضع يد واثلة من رسول الله ﷺ، فجعل يضعها مرة على صدره ومرة على وجهه ومرة على فيه، فقال واثلة: ألا تخبرني عن شيء أسألك عنه كيف ظنك بالله تبارك وتعالى؟ قال: أغرقتني ذنوبي لي أشفاف[1] على هلكة، ولكني أرجو رحمة ربي، فكبَّر واثلة وكبَّر أهل البيت بتكبيره، وقال: الله أكبر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عزَّ وجلَّ: أنا عند ظن عبدي، فليظن بي ما يشاء».

وعن المعتمر بن سليمان التيمي قال: قال أبي حين حضرته الوفاة: يا معتمر حدثني بالرخص لعلي ألقى الله وأنا حسن الظن به.

وعن إبراهيم قال: كانوا يستحبون أن يلقنوا العبد محاسن عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه.

وقال عطاء بن السائب: دخلنا على أبي عبد الرحمن نعوده فذهب بعض القوم يرجيه فقال: إني لأرجو ربي وقد صمت له ثمانين رمضان[2].

رابعًا - الصدق مع الله تعالى

فإن الصدق يهدي إلى البر، والصدق ينجي صاحبه، فالصدق منجاة، ومتى علم علام الغيوب من عبده صدق النية وصدق السريرة ثبته سبحانه وتعالى في دنياه وآخرته، ولقد أمرنا سبحانه أن نكون من جملة الصادقين يقول سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (التوبة: ١١٩).

والصدق أساس بناء الدين وعمود فسطاط اليقين، من لم يكن معه الصدق فهو من المنقطعين الهالكين.

---

(١) أشفى على الهلاك: إذا أشرف عليه.

(٢) «سكب العبرات» (جـ١، ص: ٥٩- ٦٠).

ومن كان معه الصدق أوصله إلى حضرة ذي الجلال وكان سببًا في حسن الخاتمة وطيب المآل.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: عمِّي أنس بن النضر سميتُ به لم يشهد بدرًا مع رسول الله ﷺ فكَبُرَ عليه فقال: أول مشهد قد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه!! أما والله لئن أراني الله مشهدًا مع رسول الله ﷺ ليرينَّ الله ما أصنع، قال: فهاب أن يقول غيرها، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد، من العام المقبل فاستقبله فقال: يا أبا عمرو إلى أين؟ قال: واهًا لريح الجنة!! أجدها دون أحد، فقاتل حتى قُتل، فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين ضربة وطعنة ورمية، قالت عمتي بنت النضر فما عرفت أخي إلا ببنانه ونزلت هذه الآية ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب: ٢٣)، فهذا الصادق الرباني يجد حلاوة العمل قبل الشروع فيه، يجد ريح الجنة قبل أن يقاتل.

وربعي بن حراش زعم أنه لم يكذب قط، عن الحارث الغنوي قال: «آلى ربعي بن حراش أن لا تفتروا أسنانه ضاحكًا حتى يعلم أين مصيره، قال الحارث فأخبره الذي غسله أنه لم يزل مبتسمًا على سريره ونحن نغسله حتى فرغنا منه رحمه الله تعالى[1].

خامسًا ـ التوبة الصادقة

ومن وسائل الثبات عند الممات التوبة الصادقة التي نبعت من مصدر الإيمان والخوف من الله تعالى، التوبة التي اكتملت فيها شروطها، لا توبة الكذابين التي لا تتجاوز اللسان ولا تعدوه، فتلك تهلك صاحبها ولا تنفعه.

---

(١) «سكب العبرات» (جـ١، ص: ٦١، ٦٢).

لذا طلب الله من معشر المؤمنين أن يتوبوا إليه توبة صادقة، فهي التي تورث صاحبها الفلاح والسعادة، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور: ٣١)، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ (التحريم: ٨).

وهيا لنعيش في أكناف التائبين: أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنسانًا ثم خرج يسأل فأتى راهبًا فقال له: أَلِيَ توبة؟ قال: لا، فقتله، فجعل يسأل، فقال له رجل: ائت قرية كذا وكذا، فأدركه الموت فنأى بصدره نحوها، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأوحى الله إلى هذه أن تقربي وأوحى الله إلى هذه أن تباعدي، وقال: قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر، فغفر له».

وهذا ماعز بن مالك جاء للنبي ﷺ تائبًا من الزنى وقال: طهِّرني، وفي الحديث: «لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم»[1].

أخي المسلم فهذه بعض أسباب الثبات عند الممات، فهيا لنرى أهل الثبات في الصفحات الآتية.



(١) قصة ماعز رضي الله عنه في الصحيح، وراجع سنن أبي داود، فللحديث روايات عدة.

الفصل الثاني

صور من الثبات عند الممات

هيا ـ أخي الحبيب ـ لنقف على صور من الثبات على الإيمان عند الممات، عليها تُشحذ الهمم، ويُوقظ النائم، ويُنبه الغافل الوسنان؛ ليرفع الجميع شعار «يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك»[(١)]، نقف مع الأخيار ممن اصطفاهم الله عزَّ وجلَّ لصحبة نبيه ﷺ ونقف أيضًا مع التابعين الذين عضوا على إيمانهم بالنواجذ وصاحوا: ﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ (آل عمران: ٨).

ثبات عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

عن أنس رضي الله عنه قال: دخلنا على عبد الله بن مسعود نعوده في مرضه فقلنا: كيف أصبحت يا أبا عبد الرحمن؟

قال: أصبحنا بنعمة الله إخوانًا.

قلنا: وكيف تجدك يا أبا عبد الرحمن؟

قال: أجد قلبي مطمئنًا بالإيمان.

قلنا: ما تشتكي؟

قال: أشتكي ذنوبي وخطاياي.

قلنا: ما تشتهي؟

قال: أشتهي مغفرة الله ورضوانه.

قلنا له: ألا ندعو لك طبيبًا؟

قال: الطبيب أمرضني.

---

(١) حديث صحيح: انظر «النصيحة» د/ محمد بن إسماعيل.

فتأمل عبد الله قول عبد الله «أجد قلبي مطمئنًا بالإيمان»، لأن صاحب القلب قال فيه ﷺ: «من سره أن يقرأ القرآن رطبًا كما أُنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»[1]، ثبت إيمانه فكانت ساقه عند الله أثقل من جبل أحد.

عن زر بن حبيش عن ابن مسعود أنه كان يجتني سواكًا من الأراك وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفؤه فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ: «مم تضحكون؟»، قالوا: يا نبي الله من دقة ساقيه، فقال: «والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد»[2].

ثبات عامر بن فهيرة رضي الله عنه

لما طعن جبار بن سلمى عامر بن فهيرة فأنفذه قال عامر: فزت والله!!

قال: وذهب بعامر علوًا في السماء حتى ما أراه فقال رسول الله ﷺ: «إن الملائكة وارت جثته وأنزل عليين»، وسأل جبار بن سُلمى قوله: فزت والله، قالوا: الجنة، قال: فأسلم جبار لما رأى من عامر بن فهيرة فحسن إسلامه.

عامر له من اسمه نصيب فهو عامر بالإيمان فنال الحياة الأبدية لثباته على مبدأ التوحيد ونال الجوائز الست، قال رسول الله ﷺ: «للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر ويأمن الفزع الأكبر، ويحلى حلية الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويشفع في سبعين إنسانًا من أقاربه»[3].

---

(١) هو رضي الله عنه من الأربعة الذين أمر النبي ﷺ بأخذ القراءة عنهم كما في صحيح مسلم (٢٤٦٤).

(٢) «صفة الصفوة» (جـ١، ١٢٥، ١٢٦).

(٣) «الثبات عند الممات» (ص:١٠٦)، أخرجه الترمذي (٧، ١٦١) في «فضائل الجهاد»، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه، وأحمد، وصححه الألباني.

ثبات سالم بن معقل مولى أبي حذيفة رضي الله عنه

قال فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو أستخلف سالمًا مولى أبي حذيفة فسألني عنه ربي - عزَّ وجلَّ - ما حملك على ذلك؟ لقلت: ربِّ سمعت نبيك ﷺ وهو يقول: «يحب الله - عزَّ وجلَّ - حقًا من قلبه».

وهيا لترى ثبات سالم يوم اليمامة؛ عن أحمد بن عبد الله قال: استشهد سالم مولى أبي حذيفة باليمامة، أخذ اللواء وجعل يقرأ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ (آل عمران: ١٤٤)، إلى أن قتل[١].

ثبات جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه

قال ابن إسحاق: وحدثني يحيى بن عباد عن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد قال: حدثني أبي الذي أرضعني وكان أحد بني مرة قال: وكان في تلك الغزوة غزوة مؤتة، قال: والله لكأني أنظر إلى جعفر بن أبي طالب حين اقتحم عن فرس له شقراء ثم عقرها ثم قاتل حتى قتل وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقترابها ... طيبة وبارد شرابها

والروم روم قد دنا عذابها ... كافرة بعيدة أنسابها

عليَّ إن لاقيتها ضرابها

وقال ابن هشام: وحدثني من أثق من أهل العلم أن جعفر بن أبي طالب أخذ اللواء بيمينه فقطعت فأخذ بشماله فقطعت فاحتضنه بعضديه حتى قتل رضي الله عنه

(١) «صفة الصفوة» (جـ١، ص: ١٢٠-١٢١).

وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فآتاه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء ويقال: إن رجلاً من الروم ضربه يومئذ ضربة فقطعه نصفين[1].

ثبات معاذ بن جبل رضي الله عنه

عن عمرو بن قيس قال: أن معاذ بن جبل لما حضره الموت قال: انظروا أصبحنا؟ قال: فقيل له: لم نصبح حتى أتى فقيل له: قد أصبحت قال: أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار... مرحبًا بالموت مرحبًا زائر مغب - أي قليل الزيارة - حبيب جاء على فاقه، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكرى الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر[2].

ثبات معاوية رضي الله عنه

وها هو معاوية بن أبي سفيان ذلكم الصحابي أحد كتاب الوحي للنبي ﷺ لما حضرته الوفاة قال لهم: أجلسوني، فأجلسوه، فجلس يذكر ربه جلَّ وعلا ويسبح الله سبحانه وتعالى، ثم بكى وقال لنفسه: الآن جئت تذكر ربك بعد الانحطام والإنهدام، أما كان هذا وغض الشباب نضير ريان ثم بكى وقال: يا رب يا رب ارحم الشيخ العاصي، ذا القلب القاسي، اللهم أقل العثرة واغفر الزلة، وجد بحلمك على من لم يرجُ غيرك، ولا وثق بأحد سواك؛ ثم فاضت روحه رضي الله عنه.

---

(١) «وقفات تربوية».

(٢) «سكب العبرات» (جـ١، ص:١٤٩).

ثبات بلال رضي الله عنه

لما احتضر بلال بن رباح رضي الله عنه قال: «غدًا نلقى الأحبة محمدًا وحزبه»، فقالت امرأته: واويلاه، فقال بلال: «وافرحاه»، وفي رواية أخرى أنه قال: «بل واطرباه، غدًا نلقى الأحبة محمدًا وحزبه»[١].

ثبات عبد الله بن رواحة رضي الله عنه

عن الحكم بن عبد السلام بن النعمان بن بشير الأنصاري قال: قُتل جعفر بن أبي طالب - يعني يوم مؤتة - دعا الناس: يا عبد الله بن رواحة وهو في جانب العسكر ومعه ضلع ينهشه ولم يكن ذاق طعامًا قبل ذلك بثلاث، فرمى بالضلع ثم قال: وأنت مع الدنيا، فتقدم فقاتل فأصيبت أصبعه فجعل يقول:

هل انت إلا إصبع دميت ... وفي سبيل الله ما لقيت

يا نفس إلا تقتلي تموتي ... هذا حياض الموت قد صليت

وما تمنيت فقد لقيت ... إن تفعلي فعلها هديت

وإن تأخرت فقد شقيت

ثم قال: يا نفس إلى أي شيء تتوقين؟ إلى فلانة؟ هي طالق ثلاثًا وإلى فلان وفلان - غلمان له - فهم أحرار وإلى حائط معجف فهو لله ولرسوله[٢].

ثبات زيد بن الخطاب رضي الله عنه

عن الجحاف بن عبد الرحمن عن أبيه قال: كان زيد بن الخطاب يحمل راية المسلمين يوم اليمامة، ولقد انكشف المسلمون حتى غلبت حنيفة على الرحال،

(١) «وصايا ونصائح الصالحين» (ص: ٢١).
(٢) «صفة الصفوة» (١/ ٤٨٤-٤٨٥).

فجعل زيد يقول: أما الرحال فلا رحال، وأما الرجال فلا رجال، ثم جعل يصيح بأعلى صوته: اللهم إني أعتذر إليك من فرار أصحابي وأبرأ إليك مما جاء به مسيلمة ومحكم بن الطفيل وجعل يشتد بالراية يتقدم بها في نحر العدو ثم ضارب بسيفه حتى قتل ووقعت الراية، فأخذها سالم مولى أبي حذيفة فقال المسلمون: إنا نخاف أن نؤتى من قبلك، فقال: بئس حامل القرآن أنا إن أوتيتم من قبلي[1].

ثبات أنس بن مالك رضي الله عنه

عن أنس بن سيرين قال: شهدت أنس بن مالك وحضره الممات فجعل يقول: لقنوني: لا إله إلا الله، فلم يزل يقولها حتى قبض ـ رحمه الله ـ.

ثبات حذيفة بن اليمان رضي الله عنه

عن زياد مولى ابن عياش قال: حدثني من دخل على حذيفة في مرضه الذي مات فيه فقال: لولا أني أرى أن هذا اليوم آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة لم أتكلم به: اللهم إنك تعلم أني كنت أحبُّ الفقر على الغنى وأحب الذلة على العز وأحب الموت على الحياة حبيب جاء على فاقة، لا أفلح من ندم ثم مات[2]، وقال: غُط يا موت غطَّك، وشُدَّ يا موت شدك، أبى قلبي إلا حبك، جاء رخاء العيش بعدك، الحمد لله الذي سبق بي الفتنة قادتها وعلوجها[3].

---

(١) «صفة الصفوة» (جـ١، ٤٤٧).
(٢) «صفة الصفوة» (جـ١، ص:١٩٧-١٩٨).
(٣) «وصايا العلماء» (ص: ٥٤).

ثبات ثابت بن قيس بن شماس ﷺ

يقول ابن الجوزي: كان خطيب رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ يقول: «نعم الرجل ثابت بن قيس»، فلما كان يوم اليمامة انهزم المسلمون فقال ثابت: أُف لهؤلاء ولما يعبدون، ولهؤلاء وما يصنعون، يا معشر الأنصار خلوا ثنيتي لعلي أصلي بحرها ساعة، قال: ورجل قائم على ثلمة فقتله وقتل، وعن أنس ﷺ قال: إن ثابت بن قيس جاء يوم اليمامة وقد تحنط ولبس ثوبين أبيضين يكفن فيهما وقد انهزم القوم فقال: اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء المشركون وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء، ثم قال: بئس ما عودكم أقرانكم منذ اليوم خلوا بيننا وبينهم ساعة فحمل فقاتل حتى قتل ﷺ[١].

ثبات أبي حازم ﷺ

عن محمد بن مطرف قال: دخلنا على أبي حازم الأعرج لما حضره الموت فقلنا: كيف تجدك؟!، قال: أجدني بخير راجيًا لله حسن الظن به، وإنه والله ما يستوي من غدا أو راح يعمر عقد الآخرة لنفسه فيقدمها أمامه قبل أن ينزل به الموت حتى يقدم عليها فيقوم لها وتقوم له، ومن غدا أو راح في عقد الدنيا يعمر لغيره ويرجع إلى الآخرة لا حظ له فيها ولا نصيب[٢].

ثبات ثابت البناني - رحمه الله -

عن محمد بن ثابت البناني قال: ذهبت ألقن أبي عند الموت فقال: يا بني خلِّ عني فإني في وردي السابع أو السادس[٣]، لله درك يا ثابت

(١) «صفة الصفوة» (جـ١، ص:٢٠٢). (٢) «سكب العبرات» (جـ١، ص:٢٠٦).
(٣) «صفة الصفوة» (جـ١، ص:٦٢٨).

مازلت ثابت على الطاعة حتى عند خروجك من الدنيا. . . فالقلب عامر بذكر الله والنفس مطمئنة.

ثبات عمر بن عبد العزيز

قال المغيرة بن حكيم: قلت لفاطمة بنت عبد الملك: كنت أسمع عمر بن عبد العزيز في مرضه يقول: اللهم أخفِ عليهم أمري ولو ساعة، قالت: قلت له: ألا أخرج عنك فإنك لم تنم، فخرجت فجعلت أسمعه يقول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص: ٨٣)، مرارًا فلبثت طويلاً لا يسمع له حس، فقلت لوصيف: ويحك انظر، فلما دخل صاح فدخلت فوجدته ميتًا وقد أقبل بوجهه على القبلة ووضع إحدى يديه على فيه والأخرى على عينيه[١].

ثبات أبي بكر بن عياش

عن إبراهيم بن أبي بكر بن عياش قال: بكيت عند أبي حين حضرته الوفاة، فقال: ما يبكيك؟! أترى الله يضع لأبيك أربعين سنة يختم القرآن في كل ليلة.

أخي المسلم أين أنا وأنت من هؤلاء؟!!

يختم القرآن كل ليلة . . فمتى ختمت القرآن؟!

إنها قسوة القلب والجفاء الذي أصاب القلوب والعقول، فاعمل لغدك وخاطب نفسك وقل لها:

---

(١) «سكب العبرات» (جـ١، ص: ٢٢٧).

يا نفس قد أزف الرحيل	وأظلك الخطب الجليل
فتأهبي يا نفس لا يلعب	بك الأمل الطويل
فلتنزلن بمنزل	ينسى الخليل به الخليل
وليركبن عليك فيه	من الثرى ثقل ثقيل
قرن الفناء بنا فما	يبقى العزيز ولا الذليل

ثبات الشافعي - رحمه الله -

دخل المزني على الإمام الشافعي في مرضه الذي توفي فيه فقال له: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ فقال: أصبحت من الدنيا راحلاً، وللإخوان مفارقًا، ولسوء عملي ملاقيًا، ولكأس المنية شاربًا، وعلى الله واردًا، ولا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنيها، أم إلى النار فأعزيها ثم أنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي	جعلت رجائي نحو عفوك سُلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته	بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فمازلت ذا عفو عن الذنب لم تزل	تجود وتعفو منَّة وتكرما
فلولاك لم يصمد لإبليس عابدٌ	فكيف وقد أغوى صفيَّك آدما
فيا ليت شعري هل أصير لجنة	أهنا؟ وإما للسعير فأندما
فلله دَرُّ العارف النَّدبُ إنه	تفيض لفرط الوجد أجفانه
يقيم إذا ما الليل مد ظلامه	على نفسه من شدة الخوف مأتما
فصيحًا إذا ما كان في ذكر ربه	وفيما سواه في الورى كان أعجما
ويذكر أيامًا مضت من شبابه	وما كان فيها بالجهالة أجرما
فصار قرين الهَمّ طول نهاره	أخا السُّهد والنجوى إذا الليل أظلما
يقول حبيبي أنت سُؤلي وبُغْيَتي	كفى بك للراجين سؤلاً ومغنما
ألست الذي غذيتني وهديتني	ولازلت منَّانًا علي ومنعما

عسى من له الإحسان يغفر زلتي ... ويستر أوزاري وما قد تقدما
تعاظمني ذنبي فأقبلت خاشعًا ... ولولا الرضا ما كنت يا رب منعما
فإن تعف عني تعفُ عن متمرد ... ظلوم غشوم لا يزايل مأثما
فإن تنتقم مني فلست بآيس ... ولو أدخلوا نفسي بجرم جهنما
فجرمي عظيم من قديم وحادث ... وعفوك يأتي العبد أعلى وأجسما
حواليَّ فضل الله من كل جانب ... ونور من الرحمن يفترض السَّما
وفي القلب إشراق المحب بوصلة ... إذا قارب البُشرى وجاز إلى الحمى
حوالي إيناسٌ من الله وحده ... يُطالعني في ظلمة القبر أنجما
أصون ودادي أن يدنسه الهوى ... وأحفظ عهد الحب أن يتثلما
ففي يقظتي شوق وفي غفوتي مني ... تلاحق خطوي نشوة وترنما
ومن يعتصم بالله يسلم من الوَرى ... ومن يرجه هيهات أن يتندما[1]

ثبات الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ

عن عبد الله بن أحمد قال: لما حضرت الوفاة أبي جلست عنده وبيدي خرقة لأشد بها لحييه فجعل يعرق ثم يفيق ثم يفتح عينه ويقول: لا بعد.. لا بعد.. ففعل هذا مرة ثانية، فلما كان في الثالثة قلت له: يا أبت أي هذا قد لهجت به هذا الوقت؟ تعرق حتى نقول: قد قضيت ثم تعود فتقول: لا بعد.. لا بعد؟

فقال: يا بني ما تدري ما قلت؟ قلت: لا، فقال: إن إبليس ـ لعنه الله ـ قائم بحذائي عاض على أنامله يقول لي: فُتَّني يا أحمد؟ فأقول: لا بعد.. لا بعد.. حتى أموت[2].

---

(١) «صفة الصفوة» (جـ١/٢٥٨)، «سير أعلام النبلاء» (جـ١٠/٧٦)، «ديوان الشافعي» (١٣٤-١٣٥).
(٢) «صفة الصفوة» (جـ٢، ص:٣٥٧)، «سير أعلام النبلاء» (جـ١١، ص:٣٤١).

ثبات الجنيد بن محمد - رحمه الله -

قال أبو بكر العطار: حضرت الجنيد عند الموت في جماعة لأصحابنا، فكان قاعدًا يصلي ويثني رجليه كلما أراد أن يسجد، فلم يزل كذلك حتى خرجت الروح من رجله فثقل عليه حركتها فمد رجليه وقد تورمتا، فرآه بعض أصدقائه فقال: ما هذا يا أبا القاسم؟ قال: هذه نعم، الله أكبر، فلما فرغ من صلاته قال له أبو محمد الحريري: لو اضطجعت يا أبا القاسم قال: يا أبا محمد هذا وقت يؤخذ منه، الله أكبر، فلم يزل ذلك حاله حتى مات - رحمه الله -[(١)].

ثبات أبي الحسن حسن بن محمد الخولاني الكانشي

وكان أبو الحسن حسن بن محمد الخولاني الكانشي قد سمع عند احتضاره يقول: لا يا عدو الله حتى يردوا الرداء.

فقيل له: ما هذا؟ قال: إبليس عند رأسي يقول: نجوت مني.

كما سمع يقرأ عند خروج نفسه ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (القمر: ٥٤-٥٥)[(٢)].

ثبات أبي يعقوب إسحاق بن محمد النهرجوري

دخل المزين على أبي يعقوب إسحاق بن محمد النهر جوري وهو في النزع فقال له: قل: لا إله إلا الله، فتبسم وقال: إياي تعني، وعزةِ من لا يذوق الموت ما بيني وبينه إلا حجاب العزة، ومات فورًا.

---

(١) «حلية الأولياء» (جـ١٠، ٢٨١)، و«الثبات عند الممات» (ص:١٦٨-١٦٩).

(٢) «سكب العبرات» (جـ١، ص:٤٢٩).

فكان المزين يأخذ بلحية نفسه ويقول: حجام مثلي يلقن الأولياء الشهادة واخجلتاه منه، وكان يبكي كلما ذكر ذلك[١].

ثبات عابد عند الموت

وقال محمد بن إسماعيل الصنعاني: قيل لبعض الصالحين وهو في السياق: قل لا إله إلا الله، ففتح عينيه وأنشد:

وغدا يذكرني عهودا بالحمى ومتى نسيت العهد حتى أذكر[٢]



(١) «سكب العبرات» (جـ١، ص:٤٢٩-٤٣٠).
(٢) «سكب العبرات» (جـ١، ص: ٤٣٠).

الخاتمة

أخي المسلم.. أختي المسلمة... بعد أن عشنا في أكناف الأنبياء والصالحين وعرفنا وسائل الثبات سواء كانت أمام الطغاة أو الشهوات أو أمام المصائب أو عند الممات، وعرفنا كيف ثبت هؤلاء أمام المحن والإحن وجب علينا أن نقتدي بهم وأن نسير على منهجهم لأن الله تعالى قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام: ٩٠)، وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ (يوسف: ١١١).

فالنجاة النجاة.. والحذر الحذر...

فالله أسأل أن ينفعنا بما قلنا وأن يهدينا بها ويجعلنا سببًا لمن اهتدى، فيا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، ويا مصرف القلوب والأبصار صرف قلوبنا إلى طاعتك، ويا ولي الإسلام مسِّك قلوبنا بالإسلام، ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ (آل عمران: ٨)، ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٦).

اللهم احملنا في سفن نجاتك، ومتعنا بلذيذ مناجاتك، وأوردنا حياض حبك، وأذقنا حلاوة ودك وقربك، واجعل جهادنا فيك، وهمَّنا في طاعتك، وأخلص نياتنا في معاملتك، فإنا بك ولك، ولا وسيلة لنا إليك إلا أنت، سبحانك ما أضيق الطرق على من لم تكن دليله، وما أوضح الحق عند من هديته سبيله!

اللهم املأ قلوبنا بك فرحًا، وألسنتنا لك ذكرًا، وجوارحنا فيما يرضيك شغلاً!.

اللهم امحُ عن قلوبنا كل ذكر إلا ذكرك، وكل حب إلا حبك، وكل ود إلا ودك، وكل إجلالٍ إلا إجلالك، وكل رجاء إلا لك، وكل خوف إلا منك، وكل رغبة إلا إليك، وكل رهبة إلا لك، وكل سؤال إلا منك.

آمين .. آمين .. آمين.

تم الكتاب بعون الملك الوهاب

كتبه الفقير إلى الله المشتاق إلى جواره

أبو همام/ السيد مراد سلامة

المراجع

١ - (تفسير ابن كثير).
٢ - (تفسير القرطبي).
٣ - (أيسر التفاسير) - أبو بكر الجزائري.
٤ - (في ظلال القرآن) - سيد قطب.
٥ - (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) - ابن حجر العسقلاني.
٦ - (صحيح مسلم).
٧ - (سنن أبي داود).
٨ - (شرح السنة) - للإمام البغوي.
٩ - (المتجر الرابح في ثواب العمل الصالح) - للحافظ الدمياطي.
١٠ - (البداية والنهاية) - ابن كثير.
١١ - (صفة الصفوة) - ابن الجوزي.
١٢ - (صيد الخاطر) - ابن الجوزي.
١٣ - (حلية الأولياء) - أبو نعيم الأصفهاني.
١٤ - (منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله) - محمد زين العابدين.
١٥ - (حياة الصحابة) - الكاند هلوي.
١٦ - (الرحيق المختوم) - المباركفوري.
١٧ - (وقفات تربوية) - أحمد فريد.
١٨ - (أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ) - جمال عبد الهادي.
- (ذرية إبراهيم عليه السلام والمسجد الأقصى) - وفاء جمعة.

١٩ ـ (السيرة النبوية) ـ لأبي الحسن الندوي.

٢٠ ـ (زاد المعاد) ـ ابن القيم.

٢١ ـ (الثبات في زمن المتغيرات) ـ إبراهيم الدويش.

٢٢ ـ (وسائل الثبات على دين الله) ـ محمد المنجد.

٢٣ ـ (القضاء والقدر) ـ عمر سليمان الأشقر.

٢٤ ـ (روضة المحبين) ـ ابن القيم.

٢٥ ـ (الفوائد) ـ ابن القيم.

٢٦ ـ (الداء والدواء) ـ ابن القيم.

٢٧ ـ (الوابل الصيب) ـ ابن القيم.

٢٨ ـ (طريق الهجرتين) ـ ابن القيم.

٢٩ ـ (مدارج السالكين) ـ ابن القيم.

٣٠ ـ (سكب العبرات) ـ سيد حسين العفاني.

٣١ ـ (الجزاء من جنس العمل) ـ سيد حسين العفاني.

٣٢ ـ (لا تحزن) ـ عائض القرني.

٣٣ ـ (مصارع العشاق) ـ عائض القرني.

٣٤ ـ (هكذا علمتني الحياة) ـ علي القرني.

٣٥ ـ (دور الشباب في حمل رسالة الإسلام) ـ عبد الله ناصح علوان.

٣٦ ـ (حتى يعلم الشباب) ـ عبد الله ناصح علوان.

٣٧ ـ (صور من العفة) ـ محمد بن الرحمن العجمي.

٣٨ ـ (قصص إيمانية) ـ عادل محمد العبد العالي.

٣٩ ـ (١٠٠ فائدة من سورة يوسف) ـ محمد النجد.

٤٠ ـ (التذكرة) ـ للقرطبي.

٤١ ـ (منهج الإسلام في تحرير النفس البشرية) ـ عبد اللطيف بدر.

٤٢ ـ (ألف قصة وقصة) ـ هاني الحاج.

٤٣ ـ (مجلة التوحيد) ـ عدد ربيع أول ١٤٢٤.

٤٤ ـ (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) ـ للقاضي عياض.

٤٥ ـ (التقوى) ـ أحمد فريد.

٤٦ ـ (حياة ابن تيمية) ـ لأبي الحسن الندوي.

٤٧ ـ (من أخلاق العلماء) ـ محمد سليمان.

٤٨ ـ (أقباس روحانية) ـ محمد شيت خطاب.

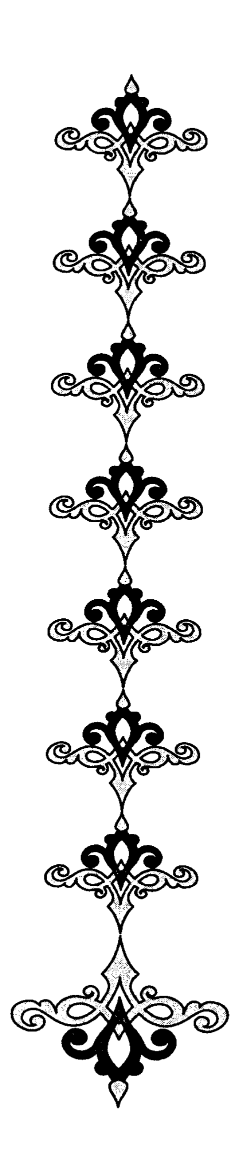
٤٩ ـ (قصة أهل الكهف) ـ سعيد عبد العظيم.

٥٠ ـ (إغاثة اللهفان) ابن القيم.

٥١ ـ (تسلية المصاب) ـ أحمد فريد.

٥٢ ـ (لطائف المعارف) ـ ابن رجب الحنبلي.





الفهرس

الفهرس

الموضـــوع	صفحة
المقـدمـة	٥
الباب الأول	
وسائل الثبات على الإيمان أمام الطغاة	**٧**
الباب الثاني	
صور من الثبات على الإيمان أمام الطغاة	**٢٧**
الفصل الأول ـ ***ثبات الأنبياء والرسل***	**٢٩**
١ ـ نـــوح عليه السلام	٢٩
٢ ـ هـــود عليه السلام	٣٦
٣ ـ إبراهيم عليه السلام	٣٨
٤ ـ موسى عليه السلام	٤٦
٥ ـ دنيـــال عليه السلام	٥١
٦ ـ محمد صلى الله عليه وسلم	٥٢
الفصل الثاني ـ ***ثبات أتباع الأنبياء والرسل ممن كان قبلنا***	**٥٨**
١ ـ أصحاب الأخدود	٥٨
٢ ـ امرأة فرعون	٦٢
٣ ـ ماشطة ابنة فرعون	٦٤
٤ ـ سحرة فرعون	٦٥
٥ ـ أصحاب الكهف	٦٨

الموضـــوع | صفحة

٦ ـ صاحب ياسين ٧٤
الفصل الثالث ـ ثبات الصحابة ﷺ **٧٦**
ـ فضل الصحابة ﷺ ٧٦
١ ـ ثبات أبي بكر الصديق ﷺ ٧٨
٢ ـ أسماء بنت أبي بكر ﷺ ٨٣
٣ ـ عبد الله بن حذافة ﷺ ٨٦
٤ ـ بـــلال ﷺ ٨٩
٥ ـ عمار بن ياسر ﷺ ٩١
٦ ـ خباب بن الأرت ﷺ ٩١
٧ ـ ثبات أبي ذر ﷺ ٩٢
٨ ـ عثمان بن مظعون ﷺ ٩٣
٩ ـ خبيب بن عدي ﷺ ٩٥
الفصل الرابع ـ ثبات التابعـين **٩٧**
١ ـ أبي مسلم الخولاني ٩٧
٢ ـ سعيد بن جبير ٩٨
ـ جزاء الحجاج ١٠٢
٣ ـ حطيط الزيات ١٠٣
٤ ـ الإمام الأوزاعي ١٠٤
٥ ـ شيخ الإسلام أبي الحسن ١٠٧
٦ ـ أبي بكر النابلسي ١٠٧
٧ ـ العز بن عبد السلام ١٠٨

الموضـــوع صفحة

٨ ـ الإمام أحمد بن حنبل ١١٣
٩ ـ شيخ الإسلام بن تيمية ١١٥

الباب الثالث

الثبات أمام الشهوات ١١٩

الفصل الأول ـ وسائل الثبات على الإيمان أمام الشهوات ١٢١
ـ أولاً: تقوى الله تعالى ١٢٢
ـ ثانيًا: مراقبة الله تعالى ١٢٤
ـ ثالثًا: تذكر حقوق المنعم ١٢٥
ـ رابعًا: نتائج الشهوات ١٢٨
ـ خامسًا: مجاهدة النفس ١٣٠

الفصل الثاني ـ صور من الثبات على الإيمان أمام الشهوات ١٣٢
١ ـ ثبات نبي الله يوسف عليه السلام ١٣٢
٢ ـ جريج العـابد ١٣٥
٣ ـ الربيع بن خثيم ١٣٦
٤ ـ سليمان بن يسار وعطاء بن يسار ١٣٨
٥ ـ السري بن دينار ١٤٠
٦ ـ عبيد بن عمير ١٤٠
٧ ـ منزلة التائبين ١٤٢
٨ ـ ثبات أبي بكر المسكي ١٤٢
٩ ـ الموت ولا معصية ربي ١٤٣
١٠ ـ شمعة وعفيف ١٤٤

الموضوع | صفحة

١١ ـ عبد العزيز الهندي ١٤٦
١٢ ـ وهل نام الله؟ ١٤٧
١٣ ـ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ١٤٨
١٤ ـ جعلتها ذخيرة عند الله ١٤٩
١٥ ـ عمر وشبيه يوسف ١٤٩

الباب الرابع

صور من الثبات على الإيمان عند حلول المصائب ١٥٣

الفصل الأول ـ أسباب الثبات على المصائب ١٥٥
الفصل الثاني ـ صور من الثبات على الإيمان عند حلول المصائب ١٦٣
المبحث الأول ـ ثبات الأنبياء على الإيمان عند حلول المصائب ١٦٣
١ ـ ثبات إبراهيم عليه السلام ١٦٣
٢ ـ أيـــوب عليه السلام ١٦٦
٣ ـ النبي صلى الله عليه وسلم ١٦٨
المبحث الثاني ـ صور من ثبات الصحابة والتابعين ١٦٨
١ ـ عمران بن حصين ١٦٨
٢ ـ عبد الله بن عباس ١٦٩
٣ ـ معاذ بن جبل ١٧١
٤ ـ امرأة من أهل الجنة ١٧٢
٥ ـ امرأة من الأنصار ١٧٢
٦ ـ ثبات أبي ذر ١٧٣
٧ ـ عبد الله بن عامر ١٧٣

الموضــوع صفحة

- وقفة ثبات عون على الصبر ١٧٤
٨ - ثبات امرأة من أهل البادية ١٧٤
٩ - ثبات أعرابية ١٧٦
١٠ - يزيد بن هارون ١٧٨

الباب الخامس

الثبات عند الممات ١٨١

الفصل الأول - *وسائل الثبات عند الممات* ١٨٣
- أولاً: الاستقامة ١٨٦
- ثانيًا: التقوى ١٨٧
- ثالثًا: حسن الظن بالله تعالى ١٨٨
- رابعًا: الصدق مع الله تعالى ١٨٩
- خامسًا: التوبة الصادقة ١٩٠

الفصل الثاني - *صور من الثبات عند الممات* ١٩٢
١ - عبد الله بن مسعود ١٩٢
٢ - عامر بن فهيرة ١٩٣
٣ - سالم مولى أبي حذيفة ١٩٤
٤ - جعفر بن أبي طالب ١٩٤
٥ - معاذ بن جبل ١٩٥
٦ - معاوية بن أبي سفيان ١٩٥
٧ - بلال بن رباح ١٩٦
٨ - عبد الله بن رواحة ١٩٦

الموضـــوع | صفحة

٩ ـ زيد بن الخطـاب ١٩٦
١٠ ـ أنس بن مالك ١٩٧
١١ ـ حذيفة بن اليمان ١٩٧
١٢ ـ ثابت بن قيس ١٩٨
١٣ ـ ثبات أبي حازم ١٩٨
١٤ ـ ثبات البناني ١٩٨
١٥ ـ عمر بن عبد العزيز ١٩٩
١٦ ـ أبي بكر بن عياش ١٩٩
١٧ ـ الشافعي ٢٠٠
١٨ ـ الإمام أحمد ٢٠١
١٩ ـ الجنيـــد ٢٠٢
٢٠ ـ أبي حسن الخولاني ٢٠٢
٢١ ـ أبي يعقوب إسحاق ٢٠٢
٢٢ ـ ثبات عـابـــد ٢٠٣
المراجـع ٢٠٦
الفهـرس ٢٠٩



أغرب وأظرف الرؤى والأحلام

200

رؤية ورؤية

أعدها

محمد عبد الرحمن غنيم

حفظه الله



دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

من أحدث مطبوعات دار الإيمان

العُمْدَة

في علم الفرائض

تأليف

أبي عبد الرحمن

نعمان بن عبد الكريم الوتر

تقديم

العلامة القاضي الفقيه

محمد بن إسماعيل العمراني

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت: ٥٤٥٧٧٦٩

دار الكلمة
لتوزيع الكتاب والشريط والتسجيلي
فاكس: ٥٤٥١١٦٩ ت: ٥٢٢٢٠٠٢

من أحدث مطبوعات دار الإيمان

صناعة المشاهير

الشهرة وعالم الأضواء في ميزان شريعة الرحمن

فضيلة الشيخ الدكتور
سعيد عبد العظيم
غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط
دمنهور: ٥٤٥١١٦٩ ت: ٥٢٢٢٠٠٢